رواية

وليمة مصرية

سراج النيل الصاوى

رقم الأيداع : ١٤٥٧٨/٢٠٠٠
الترقيم الدولى : ٣ - ٠٧٩٦ - ٠٣ - ٩٧٧

مركز الدلتا للطباعة
شارع الدلتا - اسبورتنج ٢٤
الاسكندرية
تليفون: ٥٩٠١٩٢٣

تصميم الغلاف الخارجى
للفنان
جرجس بخيت
بالاسكندريه

إهـــداء

إلى ولدى باسم

إلى ابنتى سمر

إلى كل النبت الصغير من هذا الجيل
بأرضنا العربية .

أهدى إليهم روايتى

" وليمة مصرية "

التى حوت فى طياتها بعض أحداث و بطولات بالأمس ...
لتكون – فى عصر العولمة – هادياً ومرشداً لهم اليوم ...
و تكون عبرتها ماثلة أمام أعينهم وهم يخططون للغد ...
ذلك الغد الذى أتمنى أن يكون أكثر عدلاً و ازدهاراً
بإذن الله

سراج النيل الصاوى

الإسكندرية يوليه ٢٠٠٠



مقدمة

عزيزى القارئ

عــندما كتبــت روايتى " وليمة مصرية " ، التى تستند وتعتمد علــى بعض الوثائق و الدراسات التاريخية ، مظهراً تضحيات بعض جنودنا الأبطال بأرواحهم ، وهم يؤدون واجبهم فى الدفاع عن حرية وطــنهم و كرامــته ، فإنــنى كنــت أهدف من سرد تلك الأحداث ، واستعادتها فى ذاكرتنا ثانية ، أن نستخلص العبرة منها ؛ لتشد من أزرنــا ، إذا ما قابلتنا الصعاب .. و مهما كانت القوى التى تواجهنا أكبر منا .

و أود أن أؤكد ، بأننى فى هذه الرواية ، لا أكتب تاريخاً ، و لا أحــاول أن أكــون مؤرخاً ، و ما ينبغى على الأديب أن يفعل ذلك ، فلكل مجاله و تخصصه .

و الآن ، أتركك لتقضى وقتاً مع الوليمة ذات المذاق التاريخى ، متمنياً أن يكون الوقت ممتعاً و مفيداً .

و إلى لقاءٍ قريب فى كتاب آخر .

الطبعة الأولى　　　　سراج النيل الصاوى

الجمعة	١٩٩٩	Friday
١٩		19
نوفمبر		November

السبت		٦	١٣	٢٠	٢٧
الأحد		٧	١٤	٢١	٢٨
الاثنين	١	٨	١٥	٢٢	٢٩
الثلاثاء	٢	٩	١٦	٢٣	٣٠
الأربعاء	٣	١٠	١٧	٢٤	
الخميس	٤	١١	١٨	٢٥	
الجمعة	٥	١٢	١٩	٢٦	

١١ شعبان ١٤٢٠ — ٩ هاتور ١٧١٦

× اليوم دعوة للغداء

بالبيت الكبير

انتصار

فجر	شروق	ظهر	عصر	مغرب	عشاء
٤ ٥٣	٦ ٢٣	١١ ٤٠	٢ ٣٧	٤ ٥٧	٦ ١٨

١

أمام إحدى العمارات العتيقة ، المطلة على البحر بالإبراهيمية بمدينة الإسكندرية ، أوقفت انتصار سيارتها الصغيرة ، نزلت منها بنشاط ، تبعها ابنها الأصغر خالد ، الطالب بالمرحلة الثانوية ، توجها إلى المصعد ، تبينا تعطله ، هزت انتصار رأسها أسفاً وهى تتذكر مشكلة المصعد ، فينقلب حالها من النشاط والحيوية إلى عكسهما ، أخذت تصعد درجات السلم ببطء وتكاسل ، رغم تمتعها بصحة جيدة ، فهى لم تبلغ الأربعين إلاّ منذ سنوات قليلة فقط ، سرحت بذهنها ــــ وهى تصعد ــــ فى حالة والديها ، لــو خرجا ، ثم تعطل المصعد ، فعملية الصعود على السلم ، عند عودتهما ، لا شك ستكون متعبة وشاقة ، أما ابنها خالد فلم يصبر على الصعود ببطء مثلها ، أسرع يسبقها قفزاً إلى شقة جدته وعلامات السرور بادية على وجهه ، و لِمَ لا ؟ ... أليست جدته هى التى تقدم له كل ما يشتهيه ، و أن كل ما يطلبه منها أمره مجاب ، أخيراً ها هو يصل إلى باب الشقة ، لم يكتف بضرب الجرس ، بل أخذ يطرق الباب بيديه تلك الطرقات المميزة ، والتى تعرفها جدته جيداً ! .

أسرعت الجدة لفتح الباب ، مع ابتسامة عريضة تملأ وجهها ، حيث أن الحبيب ابن الحبيبة قد وصل ، عانقته ككل مرة ، سألته عــن أمــه ، أجابها بأنها تصعد السلم خلفــه ، تركت الجدة الباب

مفتوحاً ، وتوجهت إلى الكنبة الموجودة بجوارها ؛ لتقعد عليها ، ثم دعت خالد ليجلس بجوارها ... ربتت بيدها عليه بحنان ، سألته عن صحته ، وعن حال المذاكرة ، لكنه حدثها عن الفيلم الذى شاهده بالسينما هذا الصباح مع أمه ، قائلاً :

– فيلم رائع ، يجب أن تشاهديه .

ابتسمت الجدة ، وهى تقول :

– السينما ... ياه ... منذ سنوات بعيدة ، و أنا لم أدخلها ... أشاهد فقط الأفلام التى يعرضها التليفزيون ... إنها تكفينى .

ثم تستطرد الجدة فى الحديث ، مستفسرة :

– أكان الفيلم من الأفلام البوليسية التى تحبها ؟

– لأ ... إنه فيلم عن تأميم قناة السويس .

– قرأت عن نجاح هذا الفيلم جماهيرياً ...

– السينما كانت مزدحمة بالشباب ، لم أكن أعرف أن عبد الناصر تحبه الجماهير الشابة ، التى لم تعش زمانه ، بهذه الدرجة ، كان الجمهور يصفق له أثناء الفيلم ... وكان بعض الشباب ، بعد خروجهم من السينما ، يقلدون صوته عندما أعلن تأميم القناة .

يقلد " خالد " صوت عبد الناصر ، وهو يقول : " باسم الأمة .. رئيس الجمهورية .. تؤمم شركة قناة السويس البحرية .. شركة مساهمة مصرية " .

تنظر إليه جدته بإعجاب ، ثم تقول له :

- إنك تذكرنى بتلك الأيام الجميلة ... إننى أتذكرها كأنها حدثت بالأمس فقط .

تدخل انتصار من الباب مجهدة ، تغلقه خلفها ، تحيى والدتها برفع يدها ، ترتمى على المقعد صامتة ، تلتقط أنفاسها ... ثم تحدث والدتها :

- و لمتى سيظل المصعد يتعطل بين الحين والآخر؟ ألا يوجد حل للمشكلة ؟

- الحل أن يتضامن السكان مع ورثة صاحب العمارة ، ويشترون مصعداً جديداً .

تصمت الجدة قليلاً ، ثم تكمل حديثها :

- عمليات إصلاحه أصبحت غير مجدية ! ...

يقاطع خالد حديثهما بسؤال جدته :

- وهل لازلت حقيقة يا جدتى تتذكرين تلك الأيام ؟ ... لقد مضى عليها ما يزيد عن الأربعين عاماً ... إنها من عمر والدتى .

- فعلاً أتذكر تلك الفترة جيداً ، بل وأحفظ كل أناشيدها وأغانيها عن ظهر قلب .

يبتسم خالد وهو يحاور جدته قائلاً :

- ألأنك كنت مدرسة موسيقى ؟

- ربما ... و إن كنت أعتقد أن كل جيلى يحفظها مثلى أيضاً ... كان أول نشيد غنته المجموعة للحرب .. هو نشيد " حنحارب " ،

لحنه سيد مكاوى رحمه الله .

- حنحارب ؟ ... لم أسمعه من قبل .

تؤدى الجدة النشيد ، وقد اعتلى وجهها علامات الجد والحماس و تحرك يدها مع إيقاع اللحن ... تنشد قائلة :

- " حنحارب .. حنحارب .. كل الناس حتحارب .. موش خايفين من الجايين .. بالملايين حنحارب .. حنحارب .. حتى النصر .. تحيا مصر .. تحيا مصر " .

خلال إنشادها ، كان خالد ينظر إلى جدته مبهوراً ، وفور الإنتهاء من الإنشاد ، صفق لها قائلاً :

- عشرة على عشرة ... صوتك جميل جداً ... بل أحسن من مطربات زماننا هذا .. ولو قمتِ بالغناء .. فمن شريط واحد فقط ربما تصبحين مليونيرة بين يوم و ليلة .

تضحك الجدة وأمه على قول خالد ، ثم توجه جدته الحديث له قائلة :

- هذا النشيد له حكاية ... هل تعرفها يا خالد ؟

- بالطبع لأ .

- لقد تم تأليفه و تلحينه فور العدوان علينا .. وأرادت الإذاعة إذاعته فى الحال ، و لم يكن موجوداً بالإذاعة - وقتها - المنشدون المتخصصون ... فغناه بعض موظفى وعمال الإذاعة ، وكان الأداء رائعاً .. فالحماس كان يملأ قلوب الناس جميعاً .

تبتسم انتصار لوالدتها ، وتداعبها بقولها :

- بسبب حكاياتك مع خالد ... أظن أننا سنأكل اليوم وجبة غناء !

ثم تسألها عن أبيها قائلة :

- لِمَ تأخر أبى حتى الآن ؟ ... و لماذا تركتيه يخرج ، و المصعد معطل ؟ ... إن صحته لا تتحمل الصعود على السلم .

- و هل أقدر أن أمنعه ؟! إنه يمارس رياضة المشى بالنادى كل يوم ثم يصلى الظهر بجامع النادى .. بعدها يحضر على موعد الغداء.

- و ماذا ستقدمين لنا اليوم ؟

- الملوخية بالأرانب التى يحبها زوجك ... وصينية البطاطس باللحم التى يحبها خالد .

- و أنا ؟ .. أليس لى أكلات كنت أحبها ؟

تجيبها أمها ، و على شفتيها ابتسامة :

- أنت الآن يا انتصار تأكلين ما يحبه زوجك وابنك .

- و ما هى المساعدة المطلوبة منى الآن ؟

- كل شئ تم إعداده ... عدا الأرز و السلطة ... تركتهما لك ... ككل مرة .

لا يعجب خالد ، هذا الحديث النسائى بين انتصار و والدتها ، فيقاطعهما موجهاً حديثه لجدته قائلاً :

- يا جدتى ... إنك تتحدثين تليفونياً معها كل يوم ... و أنا لا أتمكن من زيارتك وسماع أحاديثك ، إلاّ فى العطلات و الأجازات ... أكملى من فضلك حكاياتك عن الحرب ...

تجيبه جدته ، وهى تربت بيدها على ظهره بحنان :

– و أنا تحت أمرك ياخالد .

تنهض انتصار ، و تتجه ناحية التليفزيون ، تشغله ، تقلب قنواته ، ثم تغلقه ، ذاهبة إلى المطبخ ، و هى تقول :

– سوف أعد الأرز و طبق السلطة المقرر علىَّ عملهما كل مرة ...

يبتسم خالد ، وهو يقول لجدته :

– أحسن .. حتى تتفرغين لى ، و لا يشغلك عنى أحاديث ابنتك عن الأكل ، لكن هل الحرب قامت أصلاً بسبب أن عبد الناصر أمم القناة ؟

– هذا هو السبب الذى كان ظاهراً وقتها ، لكنها حكاية يطول شرحها يا خالد .

– إحكى لى ياجدتى عن تلك الأيام ... لقد أصبحت أكثر شوقاً لمعرفتها ... بعد أن شاهدت الفيلم .

يصمت قليلاً ، ثم يواصل حديثه :

– ما قرأته عنها قليل فى كتب التاريخ ... إنك يا جدتى عشت تلك الأحداث ، و حكاياتك عنها شائقة !

– لكن من أين نبدأ يا خالد ؟ ... إنها سلسلة متصلة ...

– كما تشائين .

– هل نبدأ من وقت قيام الثورة فى ٢٣ يوليه ؟

– أى من عام ١٩٥٢ ، و هو كذلك .

– عندما قامت الثورة ، كان عمرى وقتها سبعة عشر عاماً وبضعة

أشهر ... و كنت قد تقدمت لأدرس بمعهد الموسيقى .. كان الشعب فرحاً بحركة الجيش ... كان تقديره لرجال الجيش الذى قام بالحركة كبيراً ... لم نسمع فى الأيام الأولى كلمة الثورة كان اسمها حركة الجيش المباركة .. كان قائد الحركة هو اللواء محمد نجيب .

- أليس عبد الناصر ؟
- جمال عبد الناصر - وقت قيام الثورة - كان الرجل الثانى في قيادة الثورة ، لكن اتضح فيما بعد أنه كان أقواهم ، وهو العقل المدبر لها .
- و كم كان عدد قادة الثورة ؟
- كان الصف الأول منهم مكون من إثنى عشر عضواً ... و أتذكر ذلك بسهولة ؛ لأن صور وجوههم طبعت ذات مرة بجوار أرقام الساعة الإثنى عشر ، بإحدى نتائج الحائط ... كان مجلس الثورة مكون من محمد نجيب ، وجمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر وأنور السادات ، وجمال سالم ، وشقيقه صلاح سالم ، وزكريا محيى الدين ، وابن عمه خالد محيى الدين ، وحسن إبراهيم ، وكمال الدين حسين ، وعبد اللطيف البغدادى ، وحسين الشافعى .. كان محمد نجيب برتبة اللواء ، أما بقية المجلس ، فكانوا إما برتبة البكباشى أو الصاغ .
- البكباشى و الصاغ ... ما معنى تلك الرتب ؟
- البكباشى تعنى المقدم الآن ، والصاغ يعنى الرائد ... و أتذكر أن

الإذاعات المعادية لنا – وقتها – كانت تصف حكومة مصر بأنها حكومة البكباشية ؛ لأن معظمهم تولوا المناصب الوزارية .

فجأة تنادى الجدة على ابنتها انتصار ، قائلة لها بصوت مرتفع :
- يا انتصار .. الأرز بزيت الذرة .. لا تضعى سمناً .. والدك منعه الدكتور من السمن نهائياً .
تجيبها انتصار ، من المطبخ :
- و نحن أيضاً أصبحنا لا نطبخ إلاّ به .

مرة أخرى يتبرم خالد من تلك الأحاديث الجانبية عن الطعام قائلاً:
- أكملى من فضلك يا جدتى .. ماذا حدث بعد ذلك ؟
- ألغت الثورة النظام الملكى .. أصبحت مصر ـ لأول مرة ـ جمهورية .. وعين اللواء محمد نجيب كأول رئيس للجمهورية ، وفى هذه المناسبة أتذكر أنه تم ترقية الصاغ عبد الحكيم عامر إلى رتبة اللواء ، كان فى منصب القائد العام للقوات المسلحة ... كانت الأيام الأولى للثورة جميلة وحلوة .. و تملأ نفوس الشباب بالأمل .. كان من الأغانى الأولى للثورة أغنية ، لا زلت أذكر مطلعها .. كانت تقول كلماتها :
" على الدوار .. على الدوار ... راديو بلدنا فيه أخبار " ... وتقصد الأغنية بالأخبار تلك القرارات المفرحة التى كانت تصدر تباعاً عن مجلس الثورة ... مثل إلغاء الألقاب .. البك والباشا ..

واستبدالها بكلمة السيد .

- لكن الألقاب لا زالت مستعملة حتى الآن .
- من قبيل المجاملة أو الاحترام ، و لكنها ليست بصفة رسمية ، حيث كان يصدر بها مرسوم ملكى ... كان عبد الناصر دائماً فى خطبه يصيح بقوله : " ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد " ... كان من الأناشيد المحببة لى أيضاً نشيد غنته المطربة ليلى مراد ... وهو عن شعار الثورة وقتها ، وهو الاتحاد و النظام و العمل .. غنته فى بداية الثورة .
- غنى يا جدتى هذا النشيد ... فأنا لم أسمعه من قبل فى الإذاعة .
- و أنا اشتقت لغنائه .

و تنشد الجدة مطلع النشيد قائلة :

- على الإله القوى الاعتـمـاد ... بالنظام و العـمـل و الاتحاد
فانهضى يامصر ياخير البلاد ... وانعمى بالمجد وامضى للرشاد
بالاتحاد و النظام و العمل

و تواصل الجدة الحكى قائلة :

- المقاومة الوطنية اشتعلت ضد الإنجليز من قبل قيام الثورة ، عندما أعلن رئيس حزب الوفد فى ذلك الوقت و رئيس وزراء مصر - مصطفى النحاس باشا - إلغاء الاتفاقية مع الإنجليز ، وطالبهم بالخروج من مصر ... و لم تهدأ المقاومة وازدادت ضد

الاحتلال ، و رفض العمال المصريون -وقتها- العمل بمعسكرات الإنجليز التى كانت منتشرة على طول قناة السويس ... كان الشعب كله قد التهب حماسة ... و المطربون أكثروا من الأغنيات الوطنية ... غنت أم كلثوم رائعتها " مصر تتحدث عن نفسها " ، التى يقول مطلعها :

وقف الخلـــق ينظـــرون جميعــاً ... كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبناة الأهرام فى سالف الدهر ... كـــفونـــى الكـــلام عـــــنـــد التحـــدى

قالتها الجدة مقلدة صوت أم كلثوم .

- هذه الأغنية نسمعها كثيراً فى المناسبات الوطنية .. و أعرف أنها من شعر حافظ إبراهيم .

و تكمل الجدة الحكى لحفيدها :

- كما غنى عبد الوهاب أغنيته الجميلة المعبرة عن فلسطين التى يقول مطلعها :

أخى جاوز الظالمون المدى ... فحق الجهــاد و حـــق الفـــدا

أخى أيها الـــعربـــى الأبـــى ... أرى اليوم موعــــدنا لا الغدا

- هذه الأغنية لم أسمعها ، و لم أشاهدها فى التليفزيون .

- لم تكن مصر قد عرفت التليفزيون وقتها ... مصر عرفت التليفزيون فى بداية الستينيات .

تتوقف الجدة برهة كأنها تستعيد بعض ذكرياتها ، ثم تواصل الحديث ، بينما يستمع إليها خالد باهتمام بالغ :

- كانت آذاننا و حواسنا مع الإذاعة ، وخاصة برنامج " صوت العرب " الذى أنشأته الثورة ... كان يفيض ثورية و حماسة ، وكان يلهب بها مشاعر العرب لمقاومة الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا ، و ضد الإنجليز فى البلاد التى توجد لهم فيها قواعد عسكرية ، و يعلن جمال عبد الناصر قولته الشهيرة "على الاستعمار أن يحمل عصاه على كتفه و يرحل " ، و تعلن الثورة عن أهدافها الست ، و منها القضاء على الاستعمار ، و إقامة جيش وطنى قوى .. خلال ذلك كانت تجرى المفاوضات على جلاء الإنجليز من مصر بين الجانب المصرى برئاسة عبد الناصر و الجانب البريطانى ... ونجحت المفاوضات بالإتفاق على خروج الإنجليز من مصر بعد احتلال دام أكثر من سبعين عاماً ... كانت تلك الأيام جميلة و رائعة ... لم نكن نتصور أن الإنجليز سوف يخرجون من مصر .

يقاطع خالد حديث جدته بقوله :

- حكى لى والدى عن أيام المقاومة ضد الإنجليز ، و عن بطولة ضباط و جنود الشرطة بالإسماعيلية ، عندما رفضوا تسليم أسلحتهم ، و كيف استشهد العديد منهم فى ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، وهو اليوم الذى أصبح فيما بعد عيداً للشرطة .

تبتسم الجدة و هى تستمع لحفيدها و تقول :

- ما شاء الله ... ما شاء الله عليك يا خالد .
- هذا ما عرفته من أبى .

تعود انتصار إلى ردهة المنزل ، وتخبر والدتها بأنها أنجزت ما كلفت به ، و أن الأرز على النار ، و أنها سوف تعد المائدة ، ثم توجه حديثها لخالد قائلة :

– تعال ياخالد لتساعدنى .

و يرد عليها خالد ـــ باستعطاف ـــ راجياً أن تمهله إلى أن تنتهى جدته من حكايتها ، ثم ينظر إلى جدته قائلاً :

– و ماذا بعد ياجدتى ؟ ... إننى أريد أن أعرف سبب الحرب الحقيقى هل هو تأميم القناة فقط ؟

– التأميم كان السبب المباشر و الظاهر .. ولكن هناك أسباباً أخرى لم تكن معلنة ، لكنها كانت أكثر أهمية .

– ما هى ؟

– لا تتعجل سأحكى لك كل شيء ... تزوجت جدك فى يناير ١٩٥٦ وانتقلت معه من القاهرة إلى شقتنا هذه ... كانت العمارة بحالة طيبة ، لم أكن قد تعودت على جو الشتاء البارد بالإسكندرية ، ولا على سماع صوت الرعد الشديد ، و رغم ذلك كنت أشعر بالدفء ، فقد التفت حولى زوجات أصدقاء وزملاء جدك يرحبن بى .. كنا نتزاور فى المساء ، كانت أحاديثنا فى تلك الأيام يملؤها الأمل و الاعتزاز .. و تم عمل استفتاء للشعب للموافقة على اختيار جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية .

– بدلاً من محمد نجيب ؟

– نسيت أن أذكر لك أن مجلس قيادة الثورة أعفى محمد نجيب من

تولى منصب رئيس الجمهورية ، و تم التحفظ عليه فى أحد القصور المصادرة بالمرج .. إننى لازلت أذكر يوم الاستفتاء هذا وسيارات مصلحة الاستعلامات تجوب الشوارع ، تذيع أغنية لعبدالحليم حافظ ، يقول مطلعها :

إحنا الشعب إحنا الشعب ... اخترناك من قلب الشعب
يـــا فاتـــح بـــاب الحرية ... يا ريـــس يا كبير القلب

الشعب كله غناها ... كلماتها كانت بسيطة ... وتدخل للقلب قبل الأذن .

يرد عليها خالد ، وهو يضحك :

- حتى و أنت تتحدثين عن الثورة و الحرب ، لا تنسين يا جدتى أنك موسيقية .
- تسأل ياخالد ، و لك حق ، عن الأسباب الحقيقية لحرب ٥٦ ... اهتم عبد الناصر بالجيش ، و تعاقد مع الكتلة الشرقية ، لتوريد الأسلحة منهم ، خاصة أن الغرب ماطل ، بل امتنع عن بيع الأسلحة المتقدمة لمصر ، و أخذ عبد الناصر يساعد الثوار فى كل الأقطار العربية ، و الأفريقية المستعمرة ، و التى ترغب فى التحرر ونيل الاستقلال ... وكانت المساعدات تقدم على شكل دعم مالى أو أسلحة . كانت القاهرة ، وقتها ، بيتاً لكل الثوار .. هب الشعب الجزائرى لينال حريته من الاستعمار الفرنسى . وقـــتها أيضـــاً خافت أمريكـــا و الـــدول الغربية أن ترتمى مصر فى

أحضان الشيوعية ، و تنضم للمعسكر الاشتراكى ... وعندما أراد عبد الناصر تنفيذ مشروع السد العالى ، الذى سيجعل مصر تزدهر اقتصادياً ، لجأ إلى البنك الدولى و أمريكا لتمويل المشروع ، لكن أمريكا اعتذرت ، و أوعزت للبنك الدولى أن يعتذر عن القرض ؛ بهدف إظهار أن الاقتصاد المصرى ضعيف ، ولن يقدر على السداد ... شعر عبد الناصر بالإهانة ، و أراد أن يرد الصاع صاعين ، و كانت وقفته فى ميدان المنشية فى ٢٦ يوليه ١٩٥٦ ليعلن للعالم تأميم قناة السويس .. وكان ذلك مفاجأة للجميع .

و يقلد خالد ، مرة أخرى ، صوت عبد الناصر فى خطبته عند تأميم القناة ، و التى علم بها من الفيلم .

تنتهى انتصار من ترتيب مائدة الطعام ، و تجلس معهما بالصالة ، مُعَلِّقة على تقليد خالد لخطبة عبد الناصر ، قائلة :
– كنت أتمنى أن تحفظ دروسك هكذا أيضاً .

تعترض عليها والدتها بقولها :
– مادام ابنك متفوقاً فى دراسته و ينجح كل عام ... اتركيه براحته.

تمسك انتصار التليفون ، تتصل بصلاح زوجها ؛ لتطمئن على حضوره فى موعده على الغداء ، فعمله كضابط للشرطة ، لا يسمح

له فى كثير من الأيام الانصراف فى موعده ، يخبرها بأنه لن يتأخر كثيراً ، فتحيط والدتها بذلك ، و تمسك جريدة كانت بجوارها تطالع مابها ، و يطلب خالد من والدته الاستماع معه لحكايات جدته عن الحرب .

تبتسم انتصار و تقول له :
– سمعت هذا الكلام منها عشرات المرات .

ثم تستمر فى قراءة الجريدة ، بينما تواصل الجدة حديثها لخالد عن الأحداث التى سبقت الحرب ، و كانت الدافع الرئيسى لاندلاعها.

فجأة تولى انتصار وجهها إلى المطبخ ، وتتشمم بأنفها ، تقف ثم تهرول إلى المطبخ قائلة :
– الأرز !

٢

حول مائدة الطعام ، تجلس الأسرة ، ترفرف فى أجوائها أجنحة الحب و الاحترام ، الجد وهو رب البيت و صاحب الدعوة يجلس متصدراً المائدة .. فى السبعين من عمره تقريباً .. شعره الأبيض زاده مهابة و جلالاً ، و عن يمينه تجلس زوجته ، الجدة الحاجة أنعام ؛ لتضفى على المكان الدفء و الحنان ، ثم حفيدها خالد فى مقعده المجاور لها دائماً ، كأنه ظلها . أما عن يسار الجد فيجلس العقيد صلاح بملابسه العسكرية ، حيث يعمل مأموراً بأحد أقسام شرطة المدينة ، بجانبه تقف زوجته انتصار ، المدرسة بالمرحلة الثانوية ، كعادتها ، فلا تجلس إلاَّ بعد أن تساعد فى تقديم أصناف الطعام لأفراد العائلة ، كل حسب ما يشتهيه ، و تنتهى من توزيع الطعام عليهم ... و هكذا الأمر بالنسبة لانتصار ، صار عادة وطقوساً لا يجوز مخالفتها ! .

تلتقى الأسرة بمنزل الجد ، مرة أو مرتين على الأقل كل شهر ، وكان يزيد عليهم الحفيدة سلوى ، شقيقة خالد التى تكبره بأربعة أعوام ، لكنها منذ أن تزوجت من عدة شهور ، فإنها لا تستطيع الحضور معهم ، فظروفها لا تسمح ، و كذلك ظروف زوجها ، بتلبية مثل تلك الدعوات ، و إن كانت سلوى وزوجها يقومان بالزيارة للإطمئنان على الجد و الجدة ، أو السؤال عنهما تليفونياً فى فترات متفاوتة .

هذا الهدوء لا يستمر طويلاً ، فلا يلبث بعد الحديث عن أحوال العائلة ، إلاَّ و يتبدد رويداً رويداً ، و تحل محله المداعبات التى تبدأ باستحسان صلاح لكل ما يتذوقه مما أعدته حماته ، مشيداً بطريقة طهيها ... و يكون ذلك دافعاً لمعاتبة زوجته انتصار له ؛ لأنه لايُسمعها مثل كلمات الإطراء هذه ، التى يوجهها لوالدتها ، فرغم طهيها هذه الأصناف له ، لكنه يأكلها فى صمت ، دون أن تسمع منه كلمة استحسان واحدة ، و لو على سبيل المجاملة .. و يتدخل الجد ، الذى يجلس فى هدوء مفضلاً الاستماع فقط لتلك المداعبات ، والتى تتكرر غالباً فى كل مرة يجلسون فيها حول المائدة ، قاصداً جبر خاطر ابنته ، فيقول لها :

– إن السلاطة و الأرز رائعان يا انتصار ... سلمت يداكِ .

و تبتسم انتصار و هى تحدث والدها قائلة :

– لا تذكرنى يا أبى .. الأرز كاد أن يشيط و يحترق منى .. فحكايات الوالدة لخالد أنستنى من أننى وضعت الأرز على النار .. و تركته فترة طويلة .. و لولا أن الله ستر و تنبهت .. لكانت حكاية الأرز على لسان صلاح طول الوقت الآن .

يسأل صلاح متعجباً :

– لا يزال خالد يستمع لحـــواديت و حكـــايات جدته ؟! ... لم يعد صغيراً لمثل هذا ! .

و ترد الجدة متذكرة ، و قد علت شفتيها ابتسامة رقيقة ، زادتها جمالاً وقوراً ، قائلة :

– عندما أقام خالد عندنا ، و هو صغير ... كان لا يحب أن ينام إلاّ إذا قلت له حكاية .. و كنت أنام أنا قبل أنتهى منها .

ثم تستطرد الجدة حديثها ، وقد كست نبرة صوتها الجدية ، قائلة :

– اليوم كان خالد يسألنى عن أسباب حرب السويـــس ... و هل اشتعلت الحرب لأن عبد الناصر أمم القناة فقط ؟

ينتبه الجد ، و يعدل من وضع نظارته الطبية ، ناظراً مبهوراً إلى خالد ، قائلاً :

– عظيم .. عظيم يا خالد .. أن تسأل مثل هذه الأسئلة .. و لكن ما الذى دعاك لأن تسأل هذا السؤال اليوم ؟

توقف خالد عن التهام البطاطس التى يحبها ... رد على جده قائلاً :

– شاهدت صباح اليوم أنا و والدتى فيلماً عن تأميم قناة السويس ، وكيف أن الحرب قامت بسببها .. أريدك يا جدى أن تشاهده .. إنه فيلم رائع .

يهز الجد رأسه عدة مرات ، متذكراً تلك الأيام ، قائلاً لحفيده :

– إن كان الفيلم رائعاً كما ذكرت .. فقد عشنا نحن تلك الأيام ... وكانت الحقيقة أروع بكثير ... كنا أيامها نشعر بالعزة و الكرامة و الانتصار ... رغم أن نتائج المعارك العسكرية لم تكن فى صالحنا !

ثم ينظر الجد إلى زوجته يسألها :

– و بِمَ أجبتيه ؟

– حكيت له من وقت قيام الثورة ... و الدوافع لتأميم القناة ، وضحت له أن التأميم كان السبب الظاهر فقط للحرب ، أما الأسباب الحقيقية ، فإن الاستعمار كان يود أن يخمد شرارة الثورة التى اندلعت فى البلاد العربية و أفريقيا .

يبتسم الجد ، و هو يستمع لزوجته التى غلبها الحماس ، و هى تتحدث . و تشارك انتصار والديها الحديث ، موجهة حديثها لوالدها قائلة :

– إنها لم تكتفِ فى حكاياتها بالكلام فقط .. بل كانت تغنى له كل الأناشيد و الأغانى الحماسية التى قيلت فى الحرب .

يعقب خالد على حديث والدته قائلاً :

– كان صوت جدتى جميلاً ، و هى تؤدى الأناشيد .. جعلتمونى أندم لأننى لم أعش معكم تلك الفترة ! .

و يتحدث صلاح ، و كان قد توقف هو الآخر عن تناول الطعام مصغياً باهتمام لتلك الأحاديث :

– لقد ثبت بالدليل القاطع ... و بالوثائق السرية البريطانية ، بعد السماح بنشرها .. على تآمر كل من بريطانيا و فرنسا و إسرائيل ووجود تحالف بينهم ، و أن خطة الحرب وُضِعت سراً بينهم قبل

إعلانها بفترة طويلة ... و كان باتفاقهم يريدون القضاء على الجيش المصرى فى سيناء و احتلال القناة ... لذا فإن قرار الإنسحاب أنقذ الجيش المصرى من هذا الشرك ...

يهز الجد رأسه علامة الموافقة على أقوال صلاح ، و يقول :

- سبحان الله ... هل هو توارد خواطر ! ... أن تتحدثوا هنا عن تلك الأيام ، التى مضى عليها أكثر من أربعين عاماً ، وفى نفس الوقت أتحدث أنا و بعض الزملاء هناك بالنادى عن تلك الأيام أيضا ... عقب صلاة الجمعة جلست و بعض زملائى السابقين بالسلاح ، فى حديقة النادى نتسامر .. ثم هلّ علينا القبطان سعد أبو الوفا ، و كنا لم نره منذ فترة بعيدة ...

يقاطع خالد جده ، و يسأله بلهفة :

- و من هو القبطان سعد أبو الوفا ؟

- كان قائدى فى الفرقاطة رشيد ، أيام حرب السويس ... كان من ضمن الضباط الذين تخرجوا فى الدفعة الأولى من الكلية البحرية .

تكمل انتصار الحديث ، بقولها لخالد :

- أنا أتذكر القبطان سعد دائماً فى صورة لا أنساها ... فكنا إذا ذهبنا أحياناً إلى الكابينة فى شاطئ سيدى بشر فى أوائل الشتاء ، أيام العطلات ، و نحن نرتدى الملابس التى تقينا البرد ، و البحر يكون خالياً ، بطبيعة الحال ، من المستحمين ، كنا نشاهـده فجأة

كمارد يشق البحر خارجاً منه ... كان يحب الاستحمام فى البحر شتاءً ... الله يرحم الكبائن و أيامها ... كانت تشجعنا للذهاب للبحر .

تسأل الجدة زوجها :

– و ما الذى فكركم بالحرب و الحديث عنها اليوم ؟
– أثناء جلوسنا مع القبطان سعد ... أقبل علينا أحد الأشخاص ، يرحب بنا ... عرفنا بنفسه ... و ذكّرنا بأنه كان أحد المدنيين ، الذين كانوا يعملون بسيناء وقت بداية الحرب ، و صدور الأمر للقوات بالانسحاب ... وقتها لجأ إلينا هو ومجموعة من رفاقه طالبين أن يرحلوا معنا بالمركب ؛ خشية اعتداء القوات الإسرائيلية عليهم ، و لم يكن أمامنا من الناحية الإنسانية ، إلاّ الموافقة ! .. و هكذا دار الحديث عن تلك الذكريات .

يستعطف خالد جده ، طالباً منه أن يروى له حكاياته عن الحرب ، خاصة أنه شارك فعلياً فيها .

يبتسم الجد ، و يرد عليه قائلاً :

– و أنا سألبى طلبك يا خالد ... لقد كبرت ، و من حقك أن تعرف كل شيء عن أحوال وطنك فى الماضى ، لكن سأحكى دون أن أنشد أو أغنى كجدتك ! .

يعقب صلاح قائلاً :
– و أنا أيضاً مشتاق لسماع تلك البطولات و التضحيات العظيمة ... لكن أود أن تحكيها بشيء من التفصيل ! .

تنظر الجدة إليهم ، تجدهم قد توقفوا عن تناول الطعام ، وأصبح كل همهم هو المشاركة فى الحديث ، فتصيح فيهم قائلة :
– ما الخبر ؟.. ماذا حدث ؟ .. لمَ توقفتم عن تناول الطعام ؟ .. ألا يعجبكم !؟ .. لقد قدمت كل الأصناف التى تحبونها و تطلبونها !!

علقت انتصار على قول والدتها ، قائلة لها و هى تمزح :
– إلاَّ أنا ... تعلمين جيداً أننى أحب " أم على " ... و لم تقدميها اليوم لنا ... اهتممتِ بما يحبه صلاح و خالد فقط .

قالت الجدة ، و هى تبتسم :
– أردت أن تكون " أم على " مفاجأة لكِ ... إنها فى الثلاجة ، وعليكِ أن تضعيها على النار قليلاً ... " فـأم على" تفضل أن تؤكل ساخنة .

على الفور تبدو مظاهر الفرح و الانشراح على وجه انتصار ، وتقوم من مقعدها ، و هى تصيح مهللة :
– إلى " أم على " ! .

٣

بعد تناولهم الغداء ، انتقلوا جميعاً ــ عدا انتصارــ إلى حجرة الجلوس وهى حجرة متسعة بها طقم للجلوس مذهب على الطراز الفرنسى ، عُلِّقت على جدرانها لوحات زيتية ، تحتوى على مناظر طبيعية خلابة ، وفى ركن منها ، يوجد بيانُ أسود اللون ومكتبة صغيرة ، تتجه الجدة أنعام إلى البيان ، وتجلس أمامه ، قائلة لهم :

– من مدة لم أجلس أمامه ... مادمتم ستتكلمون عن حرب السويس سأسمعكم مقاطع موسيقية لبعض الأغانى و الأناشيد التى قيلت وقتها ... لتعيشوا فى جو ذكرياتها ... و حتى تنتهى انتصار من عمل القهوة .

تبدأ الجدة العزف بنشيد الله أكبر ... و اثناء عزفها تتحرك شفاه الجد و العقيد صلاح ، ينشدان النشيد ، كما تتحرك أقدامهما مع إيقاع الموسيقى .

و ما أن تنتهى منه ، إلاَّ و يقول الجد :

– هذا النشيد ألهب حماسنا فعلاً ، وقت الحرب .

و يؤيده العقيد صلاح قائلاً :

– و كلماته قوية معبرة .. فعلاً .. " الله أكبر فوق كيد المعتدى ... أنا بالسلاح وباليقين سأفتدى .. بلدى ونور الحق يسطع فى يدى "

يطلب الجد من زوجته مواصلة العزف على البيان ، راغباً فى سماع موسيقى أغنية " أم كلثوم " التى غنتها وقتها ، وهى " والله زمان يا سلاحى " ، يضيف خالد راجياً من جدته أن تغنى الأغنية بصوتها ، و هى تعزفها .

تلبى الجدة رغبة الزوج و الحفيد ، و تبدأ فى العزف و الغناء محاولة تقليد صوت " أم كلثوم " ، و هى تغنى قائلة :

و الله زمان يا سلاحى ... اشتقت لك فى كفاحى

انطق و قول أنا صاحى ... يا حـــرب و الله زمــــان

إلى آخر كلمات الأغنية ، و ما أن تنتهى منها ، إلاّ و يصفق خالد لجدته ، قائلاً :

– عظيم ... عظيم يا جدتى .

أثناء ذلك تدخل انتصار ، حاملة صينية عليها فنجالان من القهوة ، لوالدها و زوجها ، و تقدمهما لهما ، فيشكرانهـــا ... ويكمل خالد حديثه قائلاً :

– ألم أقل أن جدتى صوتها جميل .. آه لو تغنى تلك الأغانى فى شريط ! .. سيباع منه الملايين !!

تضحك الجدة ، بينما انتصار تنظر إلى ابنها متعجبة ، قائلة له :

– كثيراً ما أغنى أنا فى البيت أيضاً ، و لم أسمع منك ، و لو كلمة واحدة بأن صوتى جميل .. مع أن صوتى مثل صوت أمى ! ... كل من يسمعنى فى التليفون يقول ذلك ! ...

تقوم الجدة ، وتجلس بمقعد مجاور لخالد ، و تربت بيدها عليه وقد شكرها الجميع على عزفها و غنائها .

يرتشف صلاح رشفة من فنجان القهوة ، وهو ينظر إلى الجد قائلاً :

– الأغانى الوطنية .. ذات الإحساس الصادق .. يكون لها تأثير كبير فى وجدان الشعب ... و تعيش مدة طويلة .. بخلاف أغانى المناسبات التى تؤلف ، و تؤدى بدون إحساس صادق ، سرعان ماتُنسى من ذاكرة الناس ! .

يؤيد الجد قول صلاح ، قائلاً له :

– معك حق يا صلاح ... لازالت أغانى الحرب عالقة فى ذهنى ... لازلت أذكر منها نشيد " حنحارب .. حنحارب .. كل الناس حتحارب " ... و كذلك أغنية " دع سمائى ، فسمائى محرقة ... دع قناتى ، فمياهى مغرقة ... واحذر الأرض ، فأرضى صاعقة ". وكثير من الأغانى .. سبب نجاحها أن المؤلف و الملحن والمطرب عايش بصدق تلك الأحداث ... كانوا قد أحسوا لأول مرة بأن بلدهم تحرر بعد استعمار الإنجليز ، الذى دام ٧٤ عاماً .. تحررت مصر وغادرها الإنجليز فى يونيه ١٩٥٦ ، لكن لم يمر إلاَّ عدة شهور على ذلك ، ويعاود الإنجليز احتلال بلادنا مرة أخرى فى نفس العام ... ولم تكن بريطانيا وحدها ... بل كانت معها فرنسا وإسرائيل .. كان هذا الأمر قاسياً علينا ... ودافعاً لنا لنقاتل بشراسة .

يجلس خالد مشدوهاً إلى جده ، يتابع ما يقوله باهتمام بالغ ، ثم يطلب صلاح من الجد أن يروى له ما حدث خلال تلك الأيام ، قائلاً له :

– نحن كلنا آذان صاغية ، وفى شوق لسماع ذكرياتك .

– قبل أن نسمع ما حدث فى الحرب ، لابد من تذكر الأحداث فى الأيام التى سبقتها ، فمنذ تأميم عبد الناصر لقناة السويس ، لم تهدأ بريطانيا ، صَعُبَ عليها أن ترى مصر قد تحررت ، فضلاً عن كسرها لاحتكار السلاح ... حيث حصلت على أسلحة متنوعة من المعسكر الشيوعى ، حصلت على طائرات متنوعة ، وغواصات ، و كاسحات ألغام ، وزوارق صاروخية و دبابات ، فضلاً عن الأسلحة الخفيفة ، و كان عبد الناصر قد أعلن عن أهدافه فى كتابه " فلسفة الثورة " ، و فى كتابه هذا وجَه النظر إلى البترول كقوة تُحسب لصالح العرب ، و أنه يسعى إلى توحيد الأمة العربية ، ببث الشعور بالقومية العربية ، فضلاً عن رؤيته البعيدة لقوة العالم الإسلامى ، ثم صلة مصر بأفريقيا ... هذا كله فى حد ذاته أقلق بريطانيا و الدوائر الاستعمارية الأخرى ... انتهزت بريطانيا و فرنسا قرار جمال عبد الناصر بتأميمه قناة السويس .. فأرادتا أن يحدث له ما حدث لمصدق فى إيران منذ عدة سنوات على تأميم القناة ...

يقاطع خالد جده ، متسائلاً :

– و من هو مصدق هذا يا جدى ؟

– محمد مصدق كان رئيساً لوزراء إيران ، و كانت له توجهات وطنية .. أمم البترول فى إيران .. تكالبت الدول المنتفعة بالبترول الإيرانى بزعامة أمريكا ضده .. و امتنعت عن شراء البترول الإيرانى .. و فشل مصدق .. وسقطت حكومته .. و حوكم .

و تضيف الجدة بمعلوماتها عن مصدق ، قائلة :

– كان الشعب فى مصر وقتها ، متعاطفاً مع وطنية مصدق .. وكان يتمنى له النجاح .

يكمل الجد حديثه ، قائلاً :

– أرادت بريطانيا أن تكرر السيناريو .. أى يفشل عبد الناصر فى إدارة قناة السويس .. كما فشل مصدق فى بيع البترول ، و يكون مصيره كمصير مصدق ... بسرية تامة أوعزت للمرشدين البحريين الأجانب بشركة قناة السويس أن ينسحبوا ، و يغادروا القناة ، و معهم مجموعة من الموظفين الفنيين و الإداريين الأجانب ؛ بقصد إيقاف العمل بحركة السفن فى القناة ؛ مما يُعد تهديداً مباشراً للملاحة العالمية ، و يحق للدول عندئذ أن تتدخل بعدها لحماية القناة ... فى منتصف سبتمبر من نفس العام ، توقف المرشدون و الموظفون الأجانب عن العمل ، كان عددهم كبيراً ، ولم تكتف بريطانيا و الدول التى تؤيدها بذلك ، فقد حشدوا فى نفس الوقت ، عدداً كبيراً من السفن ؛ للمرور فى قناة السويس ؛ لترتبك الملاحة بها .

يتلهف خالد لمعرفة ما حدث ، فيسأل جده :

– و ماذا حدث يا جدى ؟ توقفت الملاحة ؟

– أبداً .. كانت لدينا المعلومات بتحركاتهم ، فلم نُفاجأ ، أسرعت القوات البحرية بإرسال عدد من ضباط البحرية المدربين للعمل بدلاً من المرشدين الذين انسحبوا .. و استمرت الملاحة و لم تتوقف .. و كان هذا هو الانتصار الكبير أمام العالم ، و الذى يشهد بقدرة مصر على إدارة قناة السويس .

و تكمل الجدة ببعض المعلومات ، قائلة :

– أتذكر أن المرشدين اليونانيين و اليوغسلافيين رفضوا الانقطاع عن العمل ، و استمروا فى الإرشاد ، مما ساعد على نجاح مصر فى إدارة القناة .

و يؤيد الجد حديث زوجته ، قائلاً :

– كان هذا هو الانتصار الأول لمصر فى معركة تأميم قناة السويس يقابله فشل فى بريطانيا ، حيث لم ينجح مؤتمرها ، الذى دعت إليه فى عاصمتها العديد من الدول المنتفعة بالقناة ، حيث انتهى المؤتمر إلى قرارات ، و أرسلوا رئيس وزراء استراليا ــ فى ذلك الوقت ــ ممثلاً عنهم ؛ ليقابل عبد الناصر ، و يعلنه بتلك القرارات لكن عبد الناصر ، بلا تردد ، أصر على موقفه فى أحقية مصر فى تأميم القناة ... و فى هذه الأثناء كان يتم تدبير المؤامرة سراً ، بين إسرائيل و بريطانيا و فرنسا لغزو مصر .

و تتحدث انتصار قائلة :

– كأن الشاعر أحمد شوقى يتنبأ بما سيحدث لمصر من وراء قناة السويس ... كتب عنها يقول : " القناة ، و ما أدراك ما القناة ، شر البلاد الأغبر ، من التقاء الأبيض بالأحمر ... " ، كنت أحفظها وأنا طالبة بالمدرسة .

و يوجه صلاح حديثه للجد ، يسأله قائلاً :

– حالة التسليح بالنسبة للقوات المصرية ... و مقارنتها بالنسبة لقوات التحالف الثلاثى .. أعتقد كان الفرق بينهما كبيراً .

و يجيبه الجد و هويهز رأسه ، علامة الموافقة ، قائلاً :

– بالطبع ... و سوف أقرأ لك ما دون عن تلك الحرب .

ثم يتجه إلى المكتبة ، ويستخرج منها كتاباً ضخماً ، يقلب صفحاته ، ثم يقرأ ما به ، قائلاً :

– فى دراسة عن تاريخ البحرية المصرية ، أصدرت جامعة الإسكندرية كتاباً ـــ بالتعاون مع القوات البحرية ـــ احتوى بيانات دقيقة عن الأسطول المصرى ، قبيل المعركة ، و كذلك الأسلحة والمعدات للتحالف الثلاثى .

و يقرأ الجد من الكتاب ـــ بصوت عال ـــ ما هو مدون به :

- " الأسطول المصرى يوم تأميم القناة [١]

فى مساء ٢٦ يوليو عند إعلان تأميم القناة كانت وحدات القوات البحرية كالآتى :

(أ) مجموعة المدمرات :

" الناصر " و " الظافر " :

و كانتا تستكملان التدريب .

" القاهر " و " الفاتح " :

كانتا تحت الإصلاح ببريطانيا ، و حدث عند انتهاء العمرة وعودتهما إلى مصر فى منتصف أغسطس ١٩٥٦ ، أن احتجزت البحرية البريطانية ذخيرة هاتين المدمرتين ، رغم تسديد أثمانها كاملة ، فرجعتا إلى الإسكندرية دون توفر الذخيرة لأسلحتهما المختلفة " .

و يعلق صلاح على ذلك بقوله :

- و هذا يدل على أن نيتهم كانت مبيتة على الحرب و غزو مصر .

و يرد عليه الجد :

- فعلاً .

و يواصل الجد القراءة بصوته المرتفع من ذات الكتاب قائلاً :

---

(١) تاريخ البحرية المصرية ـ البحرية المصرية فى مائة عام ـ الدكتور/ أحمد عبد المنصف محمود ـ جامعة الإسكندرية ١٩٧٤

- " (ب) مجموعة الفرقاطات : [١]

كانت الفرقاطتان " إبراهيم" و" طارق" ، قد أرسلتا للإصلاح ، الأولى بجزيرة مالطا ، و الثانية بجبل طارق ، و قد رجعتا إلى الإسكندرية خلال شهرى يوليو و أغسطس ، أما باقى الفرقاطات ، وهى " محمد على " ، و " رشيد " ، و " أبو قير " و " دمياط " ، فكانت موزعة على مختلف القواعد البحرية .

(جـ) مجموعة كاسحات ألغام مكونة من ثلاث كاسحات .

(د) مجموعة من لنشات الطوربيد .

(هـ) مجموعة الغواصات ".

و يواصل الجد القراءة ، بينما الجميع فى صمت ، يستمعون إليه باهتمام ، قال :

- " قوات الأعداء البحرية :

كانت القوات البريطانية البحرية ، التى تجمعت فى جزيرتى مالطا وقبرص ، مكونة من القطع التالية :

البحر الأبيض المتوسط :

٥ حاملة طائرات .

٥ طــــراد .

١٢ مدمرة .

---

(١) نفس المصدر السابق .

٧ فرقاطة : منها سفينة مركز قيادة العمليات المشتركة ، وأخرى مركز قيادة عملية الغزو البحرى .
٧ غواصة .
١٤ كاسحة ألغام .
١ باثة ألغام .
١١ ناقلة قوات .
١١ سفينة إنزال جنود / دبابات .
٢ سفينة ورشة .
٣ ناقلة بترول .
١٤ زورق ثقيل .
٨ زورق صغير .
٣٠ سفينة و زورق مساعد .

البحر الأحمر :
١ طراد نيوفوندلاند .
٢ مدمرة فى عــدن .

و كانت القوات الفرنسية البحرية مكونة كالآتى :
١ بارجة .
٢ حاملة طائرات .
٢ طراد .
٤ مدمرة .

٨ فرقاطة .
٢ غواصة .
٧ زوارق إنزال بحرية .
٨ سفن نقل جنود .

و كانت القوات الإسرائيلية البحرية تتكون كالآتى :
معظمها فى ميناء حيفا عدا بعض الزوارق فى إيلات بخليج العقبة.
٢ مدمرة – " يافو " و " إيلات " .
٣ فرقاطة – " ميسجاف " – " ميفتاح " – " ميستاك " .
٢٢ زورق طوربيد .
١٧ زورق إنزال .
٣ سفينة حراسة .
٦ زورق ساحلى " .

و ينتهى الجد من قراءة البيانات العددية ، للأسلحة وأنواعها ، للقوات المصرية و لقوات التحالف . و يوجه حديثه لصلاح ، قائلاً :
– أردت أن أبين بالأرقام حجم قوات التحالف الثلاثى ، و كان الفارق بيننا و بينهم كبيراً ، كان هذا معلوماً لنا ، و لقيادتنا السياسية والعسكرية ، و مع ذلك لم نتردد لحظة واحدة فى الدفاع عن وطننا و عن قناتنا ، و القتال ببسالة و بشراسة .

و تتدخل الجدة قائلة :

– و هل ننسى موقف عبد الناصر ، عندما ذهب إلى الأزهر الشريف بعد إندلاع القتال ، مخاطباً الجماهير .. صائحاً " سنقاتل .. سنقاتل حتى النصر " .. عندما استمعت لخطبته ، كنت وحيدة بالإسكندرية وزوجى بالحرب .. كم وددت ساعتها أن أشاركه الحرب .. رغم أننى كنت حاملاً فى انتصار .

و تتحدث انتصار ، قائلة :

– رغم أننى مدرسة تاريخ ، فهذه الجلسة أفادتنى كثيراً ، كم يحتاج الطلبة لسماع مثل هذه الدروس ، بهذا الأسلوب ، فالمناهج الدراسية ، نظراً لأسلوبها العلمى ، لا تعطى صورة حية لنضال وكفاح الشعوب ، وأعتقد أن العبء الأكبر يقع على أجهزة الإعلام كالتلفزيون و الإذاعة ، و أيضاً على مؤلفى الروايات و القصص ، فهم يستطيعون تقديم مثل هذه الأحداث و المعارك ، فى صورة محببة للتلاميذ ، الذين يقبلون على قراءة الروايات ، و مشاهدة المسلسلات التلفزيونية بشغف .

و يعلق خالد على رأى والدته ، قائلاً :

– فعلاً .. أنا أكاد أحفظ الآن ، كل ما قالته جدتى ، و ما قاله جدى ، من حكايات عن الحرب اليوم ، و أعتقد أن ما قيل سيظل فى ذاكرتى ، و لن أنساه .

و يواصل الجد ذكرياته عن تلك الأيام ، قائلاً :

– قبل العدوان مباشرة ، كانت قواتنا البحرية بإمكاناتها ، مستعدة للقتال ، و موزعة على النحو التالى ، كما هو مدون بالكتاب .

و يمسك الجد الكتاب [1] الذى كان يقرأ منه ، قائلاً ، بصوت مسموع :

- " ميناء الإسكندرية :

١ - مجموعة المدمرات الناصر و الظافر .

المدمرتان القاهر و الفاتح : على أن تعملا فى الاستطلاع والدفاع ضد الطائرات ؛ لخلوهما من ذخيرة المدافع الرئيسية و من الطوربيدات .

٢ - أسراب من لنشات الطوربيد .

٣ - مجموعة كاسحات ألغام .

٤ - فصيلة من الضفادع البشرية .

٥ - ألغام بحرية ، و جماعات لبثها .

٦ - السفن المساعدة ، وسفن الاحتياط ، و بعض القطع القديمة التابعة لمصلحة الموانى و المنائر ؛ لتعطيل و حرمان العدو من استخدامه الميناء ، لو حاول ذلك .

ميناء بورسعيد :

١ - المدمرة " إبراهيم " .

٢ - الفرقاطة " محمد على " .

٣ - سرب لنشات الطوربيد .

---

(١) تاريخ البحرية المصرية - البحرية المصرية فى مائة عام - الدكتور/ أحمد عبد المنصف محمود ــــ جامعة الإسكندرية ١٩٧٤

ميناء السويس :

١ - الفرقاطتان " دمياط " و " أبو قير " .

٢ - أسراب لنشات الطوربيد .

٣ - ألغام ، و جماعات لبثها .

٤ - جماعتان من الضفادع البشرية .

شرم الشيخ :

١ - الفرقاطة " رشيد " .

و يضع الجد الكتاب على المنضدة ، الموجودة بالحجرة ، ثم يستكمل حديثه معهم ، قائلاً :

- كانت خطة التحالف الثلاثى ، أن تبدأ إسرائيل بالهجوم على بعض المواقع المصرية فى سيناء ، توقعوا رد الفعل المصرى ، وهو أن القوات المصرية ستندفع فوراً لسيناء ؛ للدفاع ، عندئذ تهجم القوات البريطانية و الفرنسية ، و تحتل القناة ، و تكون القوات المصرية محاصرة بين القوات الإسرائيلية ، و القوات البريطانية والفرنسية ، و سيكون تدخلهما بحجة الفصل بين المتحاربين ، وحماية الملاحة بقناة السويس ... و هكذا تعود مصر ثانية بلداً محتلاً ! . و لكن خاب توقعهم ، حيث صدرت الأوامر لقواتنا بالانسحاب من سيناء ، و الدفاع عن القناة .

بدأ تنفيذ خطتهم فى يوم ٢٩ أكتوبـــر ، أسقطت إسرائيل قـــوات مظلات من الجو ، فى بعض المواقع بسيناء ، مع تقدم قوات إسرائيلية إلى غزة و العريش لجذب قواتنا إلى سيناء ، فى يوم ٣١ أكتوبر ، بدأت بريطانيا و فرنسا تنفيذ الخطة ، فى مرحلتها الثانية بالهجوم على المطارات المصرية ، و نظراً بما لهما من تفوق كبير ، فقد تم تدمير العدد الأكبر من الطائرات المصرية ، وهى رابضة فى مطاراتها .

هذه هى الصورة العامة لبداية الحرب ، و الآن سأحكى عن المعارك الحربية التى دارت فى مجال البحرية .

و تستمع الأسرة إلى المؤذن من الجامع المجاور ، و هو يرفع أذان العصر ، و يرى الجد أن يستكمل حكاياته بعد الانتهاء من الوضوء و الصلاة .

٤

فى المطبخ ، وقفت انتصار أمام الحوض ، و قد ارتدت مريلة والدتها ؛ لتقيها البلل ، لغسل الأطباق و الأوانى ، قبل أن تنهى زيارتها ، و هكذا تفعل بعد كل وليمة ، تعدها لهم الأم . وقفت أمها بجوارها تسليها بالأحاديث عن أحوال العائلة ، فهى تعرف كل صغيرة و كبيرة عن أفرادها ، عن طريق المكالمات التليفونية ، وهذا لا يتأتى لانتصار المشغولة دائماً بعملها فى المدرسة ، وبابنتها المتزوجة حديثاً ، و بهموم الثانوية العامة التى سيجتاز ابنها خالد امتحاناتها هذا العام .

تباغت انتصار الأم بسؤالها عن أحوال شقيقها أيمن ، الموظف بأحد البنوك بالسعودية ، تجيبها الأم ، باقتضاب ، أول الأمر ، بأنه بخير ، ثم تسترسل عنه فى الحديث ، قائلة :
– كلمنا من أسبوع بالتليفون ، أخبرنا أن عودته هذا العام ستكون نهائية .
– لِمَ ؟ غَضِبَ عليه رؤساؤه ؟
– لأ ، أنتِ تعرفين أيمن ، لسانه حلو مع الجميع ، لكن هذا أمر عام يستبدلون العمالة الأجنبية بأبناء المملكة ، دول الخليج كلها تفعل ذلك .
– من آثار غزو الكويت ، استنزفت الحرب قدراتهم جميعاً .

- يلعن الحرب و سنينها ، مصر قاست سنوات طويلة منها .
- لكن شقته لم تنته بعد ، ماذا سيفعل ؟ العمارة أمامها عدة سنوات للإنتهاء منها ، إنها برج ارتفاعه عشرون دوراً .
- لا يوجد حل آخر ، إلاَّ أن يقيم معنا .
- و أولاده الصغار ، هل سيتحمل جدهم صراخهم ؟
- هو الذى رحب بتلك الفكرة ، و أيمن عرض عليه إصلاح المصعد على نفقته ، لكن والده رفض ، وجهة نظره ، لابد من مشاركة السكان فى نفقات الإصلاح ؛ حتى يحافظوا عليه عند استعماله .
- تشربين شاياً بالنعناع ؟
- لا مانع ، سأقوم أنا بعمله ، سنشرب جميعاً .

و تعد الجدة الأكواب على الصينية ، ثم تملأ البراد بالمياه ، وتضعه على " البوتاجاز " ، ثم تشعل النار .

تواصل انتصار حديثها ، تقول لأمها :
- قلت لكِ أكثر من مرة ، لابد أن تشترى غسالة أطباق .
- لست فى حاجة لها ، أنا و والدك أصبح استخدامنا للأطباق قليلاً ، وإذا أقمت وليمة لكم ، فأنتِ التى تقومين بغسل الأطباق .

تضحك انتصار بصوت عال ، و هى تصيح :
- و لهذا يا أمى فأنا أطلب منكِ سرعة شرائها !

تبتسم الجدة قائلة :

- عندما يأتى " عيد الأم " ، قدميها لأمك هدية ، لقد شبعت من الهدايا الرمزية التى تقدمينها .

- إن شاء الله ، سأشتريها لكِ بالتقسيط ؛ حتى أرتاح أنا أيضاً .

يرن جرس التليفون ، تسرع نحوه انتصار تاركة أمها بالمطبخ تتوقع مكالمة ابنتها سلوى لها ، يصدق إحساسها ، تخبرها ابنتها بأن زوجها أحمد يود مقابلة والدها لأمر هام ، المشكلة لا تعنيه هو مباشرة ، ولكن تتعلق بالشركة التى يعمل بها . تخبر انتصار زوجها برغبة أحمد فى مقابلته ، و تسأله عن الموعد المناسب ، يجيبها بأنه سينتظر لسماع حديث الجد عن الحرب ، بعدها سيعود إلى عمله متأخراً ؛ لمتابعة خروج الدوريات الليلية ، و على أحمد أن يحدد ، إما مقابلته بالقسم ، أو بمنزل والدها . عندما علمت سلوى بذلك ، و اخبرت زوجها ، قررا سوياً بأنهما سيسرعان بالحضور لسماع حكايات الجد عن الحرب ، و يطلبان أن يرجئ الجد الحكى ، إلى أن يصلا للمنزل .

بحجرة الجلوس ، تجتمع الأسرة ثانية ، كل فرد يجلس فيها فى موقعه السابق ، و تتولى انتصار تقديم الشاى لهم ، بينما يجلس الجد منتعشاً ، بعدما علم برغبة حفيدته سلوى وزوجها فى الاستماع لحكاياته ، و أنهما سيسرعان بالحضور ، يتمهل الجد فى سرد معلوماته عن الحرب ، و يتحدث فى موضـــوع آخر ، وهـــو

الاحتفالية التى تود أن تقيمها وزارة الثقافة تحت سفح الهرم ، فى نهاية الشهر القادم ؛ بمناسبة الاحتفال بالألفية الثالثة ، ويتردد على ألسنتهم ما جاء وقتها بأقلام بعض المعارضين ، خاصة اعتراضاتهم بشأن تكلفة الاحتفال الباهظة ، و التى لا تتناسب مع إمكانيات دولة تعانى من مشاكل اقتصادية ، و زيادة فى أعداد البطالة ، فضلاً عن وقوع هذا الحدث فى شهر رمضان المبارك .

ما أن ينتهوا من تعليقاتهم على الاحتفالية ، إلاّ و يسأل الجد حفيده عن أحواله المدرسية ، و هل ياترى يبذل الجهد الكافى ؛ للحصول على مجموع يؤهله دخول الجامعة ، بإحدى كليات القمة ، كما يسمونها ، تجيب انتصار على والدها ، قائلة :

– ليس وحده الذى يبذل الجهد فى الثانوية العامة ، كلنا نبذل الجهد معه ، صلاح لا يتأخر عنه ، معظم راتبه ، ومكافآته تذهب إلى جيوب المدرسين ... بعضهم يبدأ بإعطاء الدروس فى العطلة الصيفية ، قبل بداية العام الدراسى .

ينظر الجد إلى ابنته متعجباً ، ثم يقول :

– وخالد ، هل يأخذ دروساً حالياً، نحن فى نوفمبر فى بداية العام !.

يجيب خالد على جده :

– من الصيف يا جدى ، و إذا لم أفعل ذلك ، لن أجد لى مكاناً ... التلاميذ يتفقون مع المدرسين ، مع بدء العطلة الصيفية مباشرة .

يعلق الجد بقوله :

- كانت الدروس الخصوصية معروفة فى زماننا أيضاً ، و لكن كنا نأخذها فى مادة أو مادتين فقط ، قبل موعد الامتحانات بعدة أشهر قليلة ، و كانت قيمة الدروس لا تثقل كاهل الأسرة !.

تتحدث انتصار ، موجهة حديثها لوالدها :

- انتهى هذا الزمن ياوالدى ، المدرس الشاب ، فور تخرجه ، يريد أن يشترى سيارة بعد عام أو عامين على الأكثر من تعيينه ، ويتنافس بعضهم فيما بينهم ، على من منهم الذى يمتلك أحدث طراز من السيارات .

تبتسم الجدة ، و هى تقول :

- فى زماننا ، الذين كانوا يمتلكون سيارات من المدرسين ، كانوا يُعدون على أصابع اليد الواحدة ، و تكون سياراتهم قديمة ، وتحتاج إلى الإصلاح دائماً ! .

يقول الجد ، بتأثر :

- أسمع كلامكم هذا ، و أترحم على كثير من أساتذتى السابقين ، أتذكر منهم محمد خليفة التونسى ، و محمد الصالح عبـــد الكافى ، و توفيق جبر ، كانوا قدوة لنا فى كل شئ ، كانوا لا ينتهون من الدرس إلاّ إذا تأكدوا أن جميع من بالفصل قد استوعبوا الشرح .

تدافع انتصار ، مع ذلك ، عن زملائها من المدرسين ، قائلة :

- لا يزال يوجد الكثير مثل هؤلاء ، مهنة التدريس مهنة مقدسة ، لكن أى شائبة فيها تظهر بوضوح ، و تسئ لكل العاملين فى هذا المجال .

يؤيدها صلاح ، قائلاً :

- ومثل بعض المهن الأخرى ، كالطبيب والقاضى وضابط الشرطة.

يتساءل الجد :

- ألا يوجد علاج لظاهرة الدروس الخصوصية هذه ؟ قرأت الكثير عنها فى الجرائد ، و يبدو أنها تتزايد .

تجيب انتصار :

- تحاول الوزارة ، بكل جهدها ، عن طريق المتابعة فى المدارس ، ومتابعة الغياب أيضاً .

يتساءل الجد ثانية ، من ابنته :

- الغياب ؟ ... غياب من ؟ التلاميذ أم المدرسين ؟

تجيبه انتصار :

- تلاميذ الثانوية العامة .. فمن الشهور الأولى للدراسة ، و يبدأ التلاميذ فى الغياب من الفصول الدراسية ، و كى يتلافوا الحد الأقصى للغياب ، و من ثم فصلهم ، يتقدمون بشهادات طبية ، والكل يعلم أنها غير حقيقية .

يتعجب الجد ، و يسألها مرة أخرى :

- غير حقيقية ؟ ... و كيف يحصلون عليها ؟
- بسهولة ... إما عن طريق المجاملة ، أو يشترونها .

يوجه الجد سؤاله لخالد ، هذه المرة :

- و لماذا يا خالد يتغيب الكثير من الطلبة ؟ ألا تستفيدون من الشرح بالمدرسة ؟

يجيبه خالد :

- معظم المدرسين يحضرون المدرسة ، وهم فى غاية الإجهاد ؛ لما بذلوه من جهد فى الدروس الخصوصية ، فى اليوم السابق ، فضلا عن أن الطلبة تعتمد على الدروس الخصوصية ، والمذكرات الخارجية .

تظهر ملامح الاكتئاب على وجه الجد ، ثم يهز رأسه أسفاً ، ويقول :

- لا حول ولاقوة إلاّ بالله ..أين زماننا الآن من زمن شوقى ، عندما قال : " قم للمعلم وفه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولاً ".

ثم ينظر الجد إلى ابنته انتصار ، و يسألها ، وهو فى دهشة مما يسمع :

- و وزارة التربية والتعليم ، ماذا فعلت يا انتصار بالنسبة لظاهرة الشهادات المرضية المزورة ؟

ردت عليه ، و هى فى حيرة من أمرها :
- و ماذا تفعل يا أبى ، و الأمر متعلق بسلوك أطباء تابعين لوزارة أخرى .. بل علمت أن بعض الممرضات فى المستشفيات الحكومية التى تعتمد شهاداتها المرضية بالمدارس ، و المختومة بخاتم النسر .. يتسلمن عشرة جنيهات مقابل شهادة مرضية للتلميذ ؛ لاعتماد غيابه لمدة أسبوع ...

يقاطعها الجد ، و هو غير مصدق ، قائلاً :
- غير معقول .. أنا لا أصدق ما تقولينه يا انتصار .. أو فيه شئ من المبالغة على الأقل .

تبتسم انتصار ، وهى تحدث والدها ، قائلة :
- كنت مثلك يا أبى غير مصدقة ... و لكن هذا كان يحدث مع خالد فى المرحلة الأولى للثانوية العامة فى العام الماضى .

ينظر الجد إلى خالد ، و يسأله :
- هل هذا صحيح ياخالد ؟ و كيف يحدث ؟
- نعم .. كنا فى أول الأمر ، نذهب مجموعة من الطلبة الأصدقاء للمستشفى ؛ لتوقيع الكشف الطبى علينا ، و نعطى الممرضة عشرة جنيهات عن كل واحد فينا قبل توقيع الكشف الطبى ... فنحصل على الشـــهادات المطلوبة ، التى تمنح الدافع أجازة مرضية لمدة أسبوع ... بعدها لضيق الوقت ، كان يذهب واحد منا

فقط ، و يُحَصِّل منا المبالغ المطلوبة ، و يعود بعد إحضار الشهادات المرضية المختومة بخاتم النسر .

– دون توقيع الكشف الطبى عليكم ؟

– بالطبع ؛ لأننا نكون نستذكر ــ وقتها ــ ببيوتنا .

و تتدخل انتصار فى الحديث ، قائلة :

– وهذا يؤكد أن ما يحدث يتم بعلم الطبيب الذى يوقع على الشهادة.

و يوجه الجد للعقيد صلاح سؤالاً ، يحمل فى طياته استنكاراً وتأنيباً :

– أليست هذه جريمة يا صلاح ؟

و يفهم صلاح ما يعنيه الجد ، فيسهب فى شرح الأمر من وجهة نظره ، قائلاً :

– نعم هى جريمة ... بل هى سلسلة من الجرائم ، يرتكبها المواطنون ، و يخففون من وقعها على أنفسهم ، بقولهم أنهم معذورون ... المدرس الذى تخرج حديثاً ، يُصدم بهذا الغلاء الفاحش ، و بعيداً عن شقق التمليك ، التى لن يقدر على تملكها ، يكتشف المدرس أن إيجار الشقة الحديثة ، يزيد عن ضعف راتبه و الأدهى أن الدولة هى التى ساعدت على ارتفاع الإيجارات بهذا الشكل الفجائى ؛ بإصدار تشريعات قانونية للمبانى الحديثة ، دون أن تزيد الرواتب بمثل هذه الزيادات ... ماذا يفعل هذا المدرس ؟ وأمله فى الحياة أن يتــزوج ، وأن يُكَــوِّن أســرة ... و العائلات

أصبحت تغالى فى مهور بناتهن ، وهى معذورة هى الأخرى ، فعليها أن تشترى الأثاث المناسب ، و تفاجأ بأن تحويشة عمرها لن تكفى لشراء ما تبتغيه .. و ما يحدث بالنسبة للمدرس ، يحدث بالنسبة للطبيب ، و لغيرهما ، و هكذا . و أنا أعترف بأن هناك خللاً ، يجب دراسته جيداً ، ثم يوضع الحل .. و لكن ، للأسف ، لاأدرى ما هو الحل ! .

و يسود الحجرة ، بعد هذا الحديث ، جو من الاكتئاب ، وعدم الرضا ، لكن سرعان ما يتبدل الحال ، عندما يدق جرس الباب ، ويسرع خالد بفتحه ، و تدخل سلوى بمرحها ، وخفة دمها ، فتشيع بالمنزل البهجة و الفرح ، و تقبل جدها و جدتها ، و توجه لهما أجمل الكلمات الطيبة ، و يقبلانها هما أيضاً ، ويرحب الجميع بزوجها أحمد ، الذى تسأله انتصار فى فضول عن المشكلة التى يود عرضها على زوجها ، فيجيبها و على وجهه ابتسامة قائلاً :

– إننى حضرت مسرعاً ؛ لسماع حكايات جدى أولاً عن الحرب .

ثم ينظر إلى الجد ، قائلاً :

– أرجو يا جدى ألاّ تكون قد بدأت فى السرد .

يبتسم الجد له ، و يقول :

– الآن فقط ، سأبدأ .

٥

يتحلق أفراد الأسرة جلوساً فى الحجرة ، أنظارهم كلها تتجه إلى الجد ، يسود بينهم الصمت فى انتظار حديثه ، تتناول سلوى وأحمد العصائر التى قُدمت لهما فى هدوء ، أما الجد فقد اكتسى وجهه بعلامات الاهتمام والجدية ، ناظراً إلى أسفل ، متكئاً على قبضة يده اليسرى برأسه ، ثم لا يلبث أن يرفعها ناظراً للأمام ، كأنه يريد أن يستجمع تلك الذكريات البعيدة ، عن البطولات والمعارك التى خاضها رفاق السلاح ؛ ليرويها موجزة ، فى دقائق قليلة ، يستمر فى الصمت قليلاً ، ثم يحكى لهم بأن كل صور الأبطال قد استرجعها فى ذاكرته الآن ، من مات شهيداً منهم ، أو توفاه الله على سريره بعد ذلك ، أو لا يزال حياً يرزق بينهم .

حكى لهم الجد بأن كل رفاقه كانوا أبطالاً ، توحدوا جميعاً فى رؤية شخص واحد ، صرخوا صرخة الرفض ، قائلين .. لا .. لن تقهر إرادتنا .. لن تستعمر بلدنا ثانية .. كان و رفاقه بالبحرية يعلمون حقيقة الوضع العسكرى .. من حيث العدد و العدة .. كانوا يعلمون من الناحية الفنية العسكرية بأن قوات التحالف هى الأقوى عسكرياً .. لكن كان و رفاقه بحق يشعرون بأنهم الأقوى إيماناً بعدالة قضيتهم .. طبقوا عملياً الهتاف الذى هتفوا به ضد الاستعمار الإنجليزى أثناء مظاهرات الطلبة ، عندما كانوا يهتفون ، وقتها ، من قلوبهم " نموت نموت ، و يحيا الوطن " .

و يؤكد الجد لهم فى حديثه ، بأن تلك الروح الحماسية ، سادت كل القوات البحرية فى كافة مواقعها ، و لا عجب فى ذلك ، فهى نفس روح كل أفراد القوات المسلحة ، بل هى ذات روح الشعب المصرى فى ملحمة حرب السويس .

ثم يروى الجد لهم ، بأنه وقت نشوب الحرب ، كان ضابطاً بالفرقاطة " رشيد " ، المتمركزة بميناء شرم الشيخ .. وكانت مهمة الفرقاطة هى تعزيز الدفاع عن منطقة جنوب سيناء و مضيق تيران للتحكم فى الملاحة بخليج العقبة ، حيث أن القوات المسلحة المصرية ، وقتها ، أحكمت غلق مدخل الخليج ، أمام عبور السفن المتجهة إلى ميناء إيلات الإسرائيلى . لذا فقد تم إنشاء نظاماً للتفتيش البحرى بالمنطقة ؛ لحرمان إسرائيل من الاتصال بدول آسيا وأفريقيا ، خاصة أن قناة السويس كانت مقفلة فى وجه البضائع الإسرائيلية ؛ نظراً لوجود حالة الحرب بين مصر و إسرائيل .

و يستطرد الجد فى سرده لذكرياته ، بأن أوضح لهم بأن القوات البحرية قامت بإرسال عدة فرقاطات لتلك المنطقة ، الفرقاطة " رشيد " بشرم الشيخ ، و الفرقاطتان " دمياط " و " أبو قير " بميناء السويس ، و كانت القوات البحرية تنسق بين قواتها و القوات البرية ؛ بهدف السيطرة على الخليج و منطقة شرم الشيخ .

و يحكى الجد عن منطقة شرم الشيخ ، قبيل القتال ، فيقول بأن

الجو ، وقتها ، كان رائعاً ، و السماء صافية ، و مياه البحر بزرقتها الجميلة ، التى تتفاوت درجات لونها من ناحية لأخرى ؛ وفقاً لعمق المياه ، و صفاء السحاب ، و كيف أن طيور النورس كان منظرها بديعاً ، و هى لا تتوقف عن الحركة ، و لا عن الطيران لأعلى ، و يصف الجد جنوده ، فى تلك المنطقة بأن نفوسهم الأبية كانت تطير فى العلياء هى الأخرى .

و ما يرويه الجد هو الحقيقة بعينها ، ألم تتحرر مصر منذ شهور قليلة فقط ؟ و العزة و الكرامة ألم تغطيا كل سماء الوطن ؟ .

و يؤكد الجد هذا المعنى بقوله :

– فعلاً كان اعتزازنا بمصريتنا كبيراً .. شعرنا بالعزة و الكبرياء ، بعد تأميم القناة .. و كنا مستعدين للتضحية و الفداء .

ثم يعتدل فى جلسته ، ويكمل حديثه :

– بدأت إسرائيل الحرب فى ٢٩ أكتوبر ، و فى ٣١ أكتوبر دخلت بريطانيا و فرنسا الحرب ، كما ذكرت لكم من قبل ، حيث قامت طائراتهما بمهاجمة المطارات المصرية ، و تمكنت طائراتهما من تدمير العدد الأكبر من طائراتنا ، و هى رابضة بالمطارات ... انطلقت طائراتهم من حاملات الطائرات العديدة التى اصطحبوها معهم ، و من القواعد الجوية فى قبرص ، و غيرها .

يقطب الجد جبينه ، و هو يواصل السرد :

– علمنا بما حدث لطائراتنا .. لم نخف.. صممنا على القتال.. هانت

علينا أرواحنا .. لن نستسلم أبداً مهما كانت قوتهم .. و مهما كان الثمن الذى سندفعه . لذا فإن البطولات التى قام بها ضباط وجنود الفرقاطة " دمياط " كانت تتمشى مع الروح القتالية التى كنا عليها واستعدادنا للتضحية والاستشهاد .. كانت من أهم معاركنا البحرية فى الحرب .. وكان قائدها الصاغ بحرى محمد شاكر حسين ، المثل والقدوة للضباط من بعده .

و يصمت الجد قليلاً ؛ لعل صمته هذا يساعده فى التركيز ؛ ليتذكر تفصيلات ما حدث ، ثم يواصل الحكى لأفراد أسرته ، الذين جلسوا صامتين ، منبهرين بما يقوله :

– كان ذلك يوم ٣١ أكتوبر ، الساعة الرابعة بعد الظهر ، عندما أبحرت الفرقاطة " دمياط " من ميناء الأدبية بمدينة السويس ؛ تنفيذاً للأوامر التى صدرت لها ؛ لتتجه جنوباً إلى شرم الشيخ ؛ لتنضم للفرقاطة " رشيد " ، الراسية هناك بالميناء ؛ لتعزيز قواتنا البرية بالمنطقة ، و مساعدتها فى إغلاق المضيق . كانت تبحر بسرعة إحدى عشرة عقدة ، و لما اقتربت بحذاء فنار رأس غارب ظهرت أمامها ثلاث سفن حربية ، كانت تبحر فى إظلام تام ، وتتجه ناحية الفرقاطة " دمياط " . كانت السفن عبارة عن الطراد البريطانى " نيوفوندلاند " ، و معه مدمرتان بريطانيتان .

ويعتدل الجد فى جلسته ويشرح لهم الفرق بين الطراد والمدمرة والفرقاطة ، ثم يوضح لهم بأن الطراد البريطانى " نيوفوندلاند " كان لديه تسعة مدافع من عيار ٦ بوصة ، أما تسليح الفرقاطة "دمياط "

فكان بها مدفع واحد فقط ، و من عيار ٤ بوصة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنها كانت تستعمل كسفينة تدريب ، تابعة للكلية البحرية ؛ لتدريب الطلبة .

يهز الجد رأسه ، و يقول بكلمات متقطعة واضحة :

- كل هذه المعلومات ، كان يعلمها الصاغ محمد شاكر حسين ، ويعيها جيداً .. و يعلم بصفة عامة قوة بريطانيا العظمى البحرية ، ألم تكن ، وقتها ، سيدة بحار العالم ، بدون منازع ؛ لتحمى مستعمراتها المنتشرة فى أنحاء المعمورة ؟

ثم ينتقل الجد فى حكيه إلى السبب الذى جعل شاكر حسين ، يغلى الدم فى عروقه ، فهو من مواليد بنى سويف بصعيد مصر ، ويأبى أن تهان كرامته .

و يواصل الجد حكيه ، موضحاً السبب الذى أثار حنق شاكر حسين وغضبه ، قال :

- أرسلت السفن المعادية ، عن طريق الطراد " نيوفوندلاند " ، إشارات ضوئية للفرقاطة " دمياط " ، تأمرها بالتوقف ، فردت عليها الفرقاطة تسألها عن هويتها ، تعجب شاكر مما يحدث ، فالفرقاطة مصرية ، و فى المياه الإقليمية لمصر ، و تأتى سفن معادية ، مبحرة فى مياهنا الإقليمية ، ثم تتبجح هذه السفن ، وتأمر الفرقاطة المصرية بالتوقف . استمر شاكر حسين فى قيادته

للفرقاطة غير مبال بأمر التوقف ، وقد طلب من معاونيه الاستعداد للقتال ، مكلفاً مساعد اللاسلكى إبلاغ القيادة عن وجود الثلاث سفن المعادية . بعد ذلك أخذ الطراد و المدمرتان يحاصرون الفرقاطة المصرية ، فالطراد " نيوفوندلاند " يقترب من الفرقاطة ، و تتحرك مدمرة ؛ لتكون خلفها ، بينما المدمرة الأخرى كان تحركها إلى الناحية اليسرى ، و يكرر الطراد " نيوفوندلاند " إرسال إشاراته الضوئية للفرقاطة ، يأمرها بالتوقف . لم يتوقف شاكر حسين بفرقاطته ، بل زاد من سرعتها إلى ١٨ عقدة ، مستمراً فى السير جنوباً ... و يقترب الطراد منها أكثر .. و تحيط المدمرتان بها . ويقوم الطراد البريطانى بإضاءة كل أنواره الكاشفة ، و يوجهها ناحية الفرقاطة المصرية ، و توقع قائد "نيوفوندلاند " أن يستسلم قائد " دمياط " ، و قد أصبحت المسافة بينهما قليلة ، لا تتجاوز ٣٠٠ ياردة ، و لا يزال الطراد يأمر الفرقاطة بالتوقف ... و تبدأ " دمياط " المعركة بإطلاق طلقتين متتابعتين من مدفعها الوحيد تجاه الطراد ، الذى يرد عليها بإطلاق مدافعه التسعة من عيار ٦ بوصات ، أصاب ثلاثة منها مخزن البويات بمقدمها ، و إصابات أخرى فى أجزاء متفرقة منها .

و يستطرد الجد حكيه بحماس ، و كأنه يعيش المعركة حالياً ، ذكر لهم بأن ما حدث لم يخف قائد الفرقاطة ، لا هو ولا رجاله ، بل زادهم حماسة و شجاعة ، فلم يستسلم ، و لم يسلم الفرقاطة للقوات

البريطانية ، كما توقعوا ، و استمرت الفرقاطة فى القتال بإطلاق قذائفها ، إلى أن أصيبت بعدة قذائف من السفن المعاديـــة ، فتعطل مدفعها الوحيد ، و توقفت المولدات الكهربائية ، و تحطمت غرفـــة اللاسلكى ، و أظلمت الفرقاطة ، لكن سرعتها كانت لا تزال بحالة سليمة ، لم تتأثر . انتشرت القوات بالفرقاطة ، تحاول معالجة ما يمكن إصلاحه ، هذا يطفئ ناراً اشتعلت ، و ذاك يحاول إصلاح المولدات الكهربائية ، و مساعد اللاسلكى الذى اصيب هو الآخر ، لا تعنيه إصابته ، بقدر ما يعنيه إعادة الحياة إلى جهازه ، و لكن دون جدوى ، يستمد شاكر حسين حماسه و إصراره من رؤيته لضباطه و لجنوده ، و هم بهذا الموقف البطولى ، الكل يعمل بحماس ، آه لو طالت أيديهم رقاب أعدائهم فى تلك اللحظة ، يفكر شاكر حسين بسرعة ، يسأل نفسه ، لماذا لا يغامر و ينطح الطراد بفرقاطته ؛ ليغرقا معاً ؟ . أعجبته الفكرة ، و يسهل تنفيذها ، فالطراد قريب منه ، وفى شجاعة يدير السفينة فجأة إلى اليمين متجهاً إلى الطراد ليصدمه بأقصى سرعة .

يخفت صوت الجد ، و هو يقول :

ـــــ كاد شاكر حسين أن يحقق هدفه ، لولا أن العدو فطن لخطته ، صوبت السفن الثلاث مدافعها مرة واحدة ؛ لتصـــيب الفرقـــاطة ، وتوقفها فى موقعها ... ثم تميل الفرقاطة تدريجياً .. بداية للغرق بعد أن دُمِرت غرفة القيادة ، و انفجرت مراجـــل السفينة ، محدثة

أصواتاً متتالية ، وأخيراً تتسرب المياه من ثغرات كبيرة بالفرقاطة.

ووقت الشدة تظهر معادن الرجال ، بكل حزم وعقلانية ، أصدر شاكر حسين أوامره ، بأن يغادر رجاله السفينة ، أعطى الأولوية للجرحى بإجلائهم إلى العوامات ، بدأ الضباط و الجنود فى مغادرة السفينة ، دعوه لكى يغادرها معهم .. لكنه رفض ، ظنوا أن ذلك وفقاً لتقاليد البحرية بأن القبطان آخر من يغادر السفينة فى حالة الغرق .. لكن الوقت يمضى .. و يغادرها معظم من عليها ، و يبقى هو على سطح السفينة ، و معه ضابطه الأول اليوزباشى بحرى فوزى جندى .. بقيا الإثنان على السفينة ، رغم إلحاح الضباط والجنود عليهما بمغادرتها فوراً .. والوقت يمضى والسفينة تميل أكثر وأكثر ، والمياه تندفع إلى داخلها .. فى حجراتها .. من مكان إلى آخر ، ومع ذلك فالصاغ شاكر حسين واليوزباشى فوزى جندى يأبيان مغادرة السفينة ، حيث كانا يستمعان لأنين جريح .. ظلا يبحثان عنه بالتوجه ناحية مصدر صوته فى عدة أماكن .. يقتحمان الحجرات القريبة من مكان انبعاث الأنين .. صمما أن يحملاه معهما و فجأة تندفع المياه كالغول مكتسحة كل شئ .. خاصة المعدات الخشبية الغير مثبتة .. وكذلك جثث بعض الجنود ، الذين سقطوا قتلى فى المعركة .. و تغطس السفينة رويداً رويداً .. إلى عمق البحر .. حيث يبتلعها هى و من عليها .. و يحكى من بقى حياً من

هؤلاء الرجال عن شجاعة القائد شاكر حسين ، حتى اللحظات الأخيرة من استشهاده ... هو و رفاقه .

و يستمر الجد فى الحكى بتأثر ، قائلاً بأن الفرقاطة غرقت فى الدقائق الأولى من اليوم الأول لشهر نوفمبر ١٩٥٦ ، و يسأله خالد عن عدد القتلى و المصابين فى المعركة من الجانبين ، فيجيبه الجــد بأن معركة الفرقاطة " دمياط " ، و هى معركة غير متكافئة فى العدد والعدة ، أسفرت عن استشهاد ستة ضباط ، و خمسين صف ضابط و جندى بحرى من طاقمها ، أما فى الجانب البريطانى ، فقد أصيب الطراد " نيوفوندلاند " عدة إصابات من مدفع " دمياط " ، فقتل واحد و جرح خمسة أفراد من طاقمها ، و اعترف العدو بشجاعة وقوة رجال الفرقاطة .

و تستمع الأسرة لأذان المغرب من الجامع المجاور ، تسمعه بوضوح عن طريق مكبر الصوت ، و يردد بعضهم خلف المؤذن بصوت خفيض مقاطع الأذان .

و تضئ انتصار النجفة ، فقد بدأ الظلام يخيم على الحجرة ، التى كانت تعتمد على نفاذ أشعة الشمس عبر زجاج النافذة الكبيرة و ما أن ينتهى المؤذن من رفع الأذان ، إلاّ و يسأل الجد الحاضرين عما إذا كان سيواصل الحكى ، أم يكتفى بذلك هذه المرة . فتجيبه الجدة بضرورة الصلاة أولاً ، و لكى يستريح هو قليلاً ، حيث لاحظت عليه التأثر الشديد ، و هو يتذكر تلك المعارك . وبعد الصلاة يقرر إذا ما كان سيكمل الحديث ، أم سيرجئه للمرة القادمة .

٦

يعود معظم أفراد الأسرة للجلوس بأماكنهم التى كانوا بها قبل صلاتهم ، بينما الآخرون لا يزالون يستكملون وضع أقدامهم فى أحذيتهم التى خلعوها للصلاة ، و تمسح الحاجة أنعام بيديها على وجهها وهى تتمتم ببعض الأدعية ، ثم تقول للحاضرين بصوت مسموع نسبياً :

– الفاتحة لكل أموات المسلمين .

ويقرأ الجميع سورة الفاتحة بصوت هامس ، حيث تُرى شفاههم تتحرك ، و يصعب على الأذن تبين ما يقولونه بسهولة ، إلاّ عندما يصلون إلى نهاية السورة ، فتسمعهم و هم يقولون بصوت واضح ، و لا الضالين آمين .

تواصل الجدة بعدها الحديث :

– و أنا أصلى المغرب ، هفَّ علىَّ طيف الحاجة والدة القبطان سعد أبو الوفا ، دعوت لها ، كنت وقت الحرب عروسة جديدة ، كانت زوجات الضباط على صلة طيبة بى ، أحاطونى بكل رعاية ، خصوصاً بعد سفر جدكم لشرم الشيخ ، عشت وحيدة ، معى فقط الخادمة الصغيرة ، رفضتُ السفر لأسرتى لأقيم معهم بمصر الجديدة ، فضلت أن أعيش هنا ؛ لأننى كنت شغوفة بمعرفة أخبار

الحرب من زوجات و أمهات الضباط زملاء زوجى ، الموجودين بالإسكندرية ، كنت أقوم و بعض الصديقات بزيارة والدة القبطان سعد أبو الوفا ، بين الحين و الآخر ؛ للإطمئنان عليها من ناحية ، ومن ناحية أخرى ؛ لأعرف منها بعض الأخبار ، لعل ذلك يطمئننى على جدكم ، فإبنها القبطان سعد هو قائد المركب "رشيد" فإذا ما كلم والدته تليفونياً ؛ ليطمئن على أحوالها ، أطمئن أنا بالتالى ، حيث لم تكن المكالمات التليفونية سهلة ، كما هو حادث الآن .

تصمت الجدة قليلاً ، و تعلو ابتسامة رقيقة على شفتيها ، ثم تواصل الحديث عن ذكرياتها :

– أتذكر أننى كنت أزورها ، ذات يوم ، بمنزلها بمحرم بك ، كانت تجلس فى الردهة ، على الكنبة ، و هو موضع جلوسها المفضل ، و أمامها منضدة تضع عليها أدوات صنع القهوة ، كانت ـــ رحمها الله – تفضل أن تشرب القهوة من صنع يديها ، فى ذلك اليوم حضر إليها مأمور القسم ، بزيه العسكرى ، و رغم مظهره العسكرى ، إلاَّ أنه كان لطيفاً بشوشاً ، أخبرها أنه حضر لزيارتها ليطمئنها بأنه هو وكل قوة القسم رهن لإشارتها ، لما استعلمت منه عن السبب فى كل هذا الاهتمام ، أبلغها بأن الرئيس جمال عبد الناصر قرأ رسالة إبنها الأصغر " أسامه " الطالب بالإعدادية ، الذى طلب من الرئيس فى رسالته تسليمه بندقية ؛ ليدافع بها عن والديه المسنين ، خاصة أن إخوته الأكبر منه ، فى مواقـــع حربية

خارج الإسكندرية ، و أن الرئيس أمر بزيارة مأمور القسم شخصياً لهم ؛ ليطمئن الأسرة . أحسست ساعتها أنا أيضاً بالاطمئنان ، عندما وجدت رئيس الدولة ، المشغول بالحرب ، يهتم بمثل هذه الرسائل الإنسانية .

لا يزال خالد مشغولاً بأمر الفرقاطة " دمياط " ، فيسأل جده :
– و أنتم يا جدى بالمركب " رشيد " ، هل عرفتم بغرق " دمياط " ؟
– وقت المعركة .. بالطبع لأ .. فالمسافة بينهما بعيدة جداً .. كل الذى علمناه من مساعد لاسلكى " رشيد " أنه سمع رسالة لاسلكية صادرة من الفرقاطة " دمياط " تبلغ القيادة عن وجود الثلاث سفن الحربية ، ثم انقطع الإرسال عن الفرقاطة . أحياناً تتوقف السفن الحربية عن استخدام الأجهزة اللاسلكية ليلاً كإجراء أمنى ؛ حتى لا تكتشفها السفن المعادية أو تعرف وجهتها ، فاعتقدنا أن "دمياط" فضلت عدم استخدام اللاسلكى لهذا السبب ، ومع ذلك أمر القبطان سعد مساعد اللاسلكى بمداومة المتابعة وإخباره بما يستجد من إشارات صادرة من أو إلى الفرقاطة "دمياط" ... بعدها علمنا بما حدث ، و تأثرنا جميعاً .. لكن ما حدث لم ينل منا ، بل شد من عزيمتنا على مواصلة القتال .

يسألهم الجد :
– ما رأيكم ؟ نكمل الحديث ، أم نكتفى بهذا القدر اليوم ؟

بسرعة ، و فى وقت واحد ، أجابه الجميع بضرورة إكمال حديثه عن وقائع الحرب .

يبدو على وجه الجد السعادة ؛ لأن أحاديثه لاقت إعجاب واستحسان الحاضرين ، لكن ينبئهم بعزمه على إرجاء حكايته والفرقاطة " رشيد " إلى نهاية أحاديثه ، وسوف يحكى لهم أولاً ماحدث من معارك أخرى خاضتها القوات البحرية فى تلك الأيام ، موضحاً لمستمعيه بأنه يروى تلك الحكايات التى مضى عليها أكثر من أربعين عاماً ؛ هادفاً من وراء ذلك استخلاص عبرة تلك الأحداث وهى أن الإرادة القوية التى لا تلين ، تستطيع أن تنال مرادها ، وأن تقف أمام أعتى الجيوش .. وهذا يحدث فى كل زمان ومكان .. كما حدث لنا فى حربنا فى ١٩٥٦ ، عندما أرادت بريطانيا وفرنسا كسر إرادة الشعب فى أن يتحرر ، و أرادت إسقاط الرئيس المصرى الذى يهاجم الاستعمار فى كل مكان ، و لم يسقط عبد الناصر نتيجة تلك الحرب ، كما كانا يأملان ، بل سقط " إيــدن " رئيس وزراء بريطانيا ومن بعده " جى موليبه " رئيس وزراء فرنسا ، وبقى عبد الناصر فى موقعه ، بل ازدادت شعبيته فى مصر والدول العربية بعدها .. كما ظل الشعب المصرى محافظاً على بلده حراً أبياً.

و يواصل الجد الحكى بسرد بعض الأعمال القتالية التى قام بها رجال البحرية وقتها ، و التى تتميز بالتصميم و الإرادة و العزيمة القوية لمقاتلينا ، وقد ظهر ذلك واضحاً فى معركة البرلس البحرية ، حيث استشهد فيها الصاغ بحرى جلال الدين الدسوقى ، و عدد آخر من رفاقه فى تلك العملية .

و يسكت الجد فترة قصيرة ، كعادته ، يستجمع فيها ذكرياته ، ثم يواصل حديثه :

- تزايدت الاحتمالات من قيام الدول المعتدية بعملية غزو بحرى ضد مصر ؛ لذا فقد وضعت قيادة القوات البحرية خططاً لتأمين سواحلها ، كان من ضمنها مرور زوارق الطوربيد على ساحل البحر المتوسط فى المنطقة بين البرلس و بورسعيد ، وكلف الصاغ بحرى جلال الدين الدسوقى ، و هو من ضباط الدفعة الأولى التى منها الشهيد الصاغ شاكر حسين ، بتنفيذ أعمال المرور بتلك المنطقة ؛ بصفته قائداً للواء لنشات الطوربيد .

كانت التعليمات الصادرة إليه صريحة ، تنص على إنهاء مروره قبل أول ضوء ، و العودة إلى قواعده . فى ليلة ٣ نوفمبر قام سرب لنشات الطوربيد لتنفيذ تلك المهمة من ميناء الإسكندرية الشرقى ، سار السرب بسرعة ٢٥ عقدة حتى بلغ مشارف مدينة بورسعيد قرب الساعة الثانية و النصف صباحاً ، بعدها استدار عائداً ، لكن السرب عند عودته على مقربة من منطقة البرلس ، تمكن الصاغ جلال الدين الدسوقى قائد التشكيل من اكتشاف وحدات معادية ، تتكون من عدة سفن حربية ، بواسطة الرادار ، وكان ذلك فى وقت قريب من أول ضوء . كانت السفن المعادية عبارة عن حاملة طائرات و طراد و بعض المدمرات . وهو أمر فيه خطورة على السرب ؛ لاحتمال تدخل العدو الجوى ضده نهاراً.

بسرعة فائقة ، تدارس الأمر الصاغ جلال الدين الدسوقى ، ثم عزم متوكلاً على الله ، آمراً من معه بالسرب عدم إنهاء المهمة ورفع سرعة التشكيل إلى أقصى سرعة ممكنة ، وإتخاذ أوضاع الهجوم ضد السفن المعتدية ، وقد تمكن السرب من إصابة وإغراق إحدى السفن الحربية الفرنسية ، وتميز الهجوم بالسرعة والجرأة والمفاجأة ، وعقب ذلك انطلقت اللنشات عائدة إلى قاعدتها.

و يزفر الجد زفرة أسى ، ثم يكمل حديثه :

– لكن أثناء عودة التشكيل تمكن العدو باستخدام الطائرات المحمولة بحراً من على حاملة الطائرات الفرنسية ، من اكتشاف التشكيل البحرى المصرى ، و قامت تلك الطائرات فى هجمات جوية متتالية بإطلاق قذائفها فى إتجاه التشكيل ، حيث تمكنت الطائرات من إصابة اللنشات بإصابات بالغة تسببت فى غرقها ، حيث استشهد الصاغ جلال الدين الدسوقى ، والكثير من رجاله الأبطال أمام البرلس .

يعقب صلاح على استشهاد جلال الدين الدسوقى بقوله :

– رحمه الله .. إنه من أسرة وطنية تعرف الكفاح منذ زمن بعيد .. فله شقيق يدعى صلاح الدسوقى كان ضابطاً بالشرطة ، و تطوع ضمن من كانوا يقاومون الإنجليز فى الاسماعيلية قبل قيام الثورة.

ثم تُدلى انتصار بمعلومة أخرى عن الشهيد جلال الدين الدسوقى قائلة :

- شاهدت فيلماً مصرياً منذ زمن ، يبرز حياة جلال الدين الدسوقى و بطولته فى معركة البرلس ، التى استشهد فيها أيضاً الضابط البحرى جول جمال ، السورى الجنسية ، و آخرون .

يتحدث أحمد ، قائلاً :

- جول جمال ... إنه يحمل اسم شارع كبير بالقاهرة .. تسكن فيه عمتى نادية .. رغم أننى مشيت فى هذا الشارع مرات عديدة .. إلاّ أننى لم أكن أعرف عنه شيئاً .

تعود انتصار للحديث ، بقولها :

- ليتهم فى مصر يخلدون تلك البطولات فى أفلامنا المصرية ، كما تفعل أمريكا عن الحروب التى خاضتها .

٧

صمت الجد لحظات ، فترك المجال لبعض الأحاديث الجانبية عن الحرب أن تتشعب فى عدة إتجاهات . هل كان الجد ينشد من لحظات الصمت هذه أن يستريح فيها قليلاً ؟ أم ليستجمع فيها تفصيلات ذكرياته الأخرى التى لم يتحدث عنها بعد ؟ ... ربما يكون صمته لكلا السببين معاً.

انتهزت الجدة أنعام لحظات صمت الجد ، فاسترسلت فى الحكى فالأحاديث عن الحرب أثارت فيها شجوناً و أحزاناً قديمة ، ولها ذكرياتها الخاصة عنها ، بدأت حديثها بمعلومات شائقة ، وذكرت فيها بعض الجوانب الإنسانية ، فلمست شغاف قلوب المستمعين ، وشدت انتباههم إليها ، قالت :

– انقطعت أخبار جدكم عنى تماماً من قبل أن تبدأ الحرب بأيام ، كنت فى حالة قلق نفسى كبير ، ساعد عليه أننى أصبحت حاملاً ، وفى الشهور الأخيرة من الحمل ، وقتها تلقيت الصدمات الواحدة تلو الأخرى ، لم أكن اعرف إن كان زوجى حياً ، أم أُستشهد ، أم وقع أسيراً فى الحرب .

– لِمَ كان إحساسك بالتشاؤم هذا يا جدتى ؟

سألتها سلوى .

أجابتها على الفور الجدة :

– لم يكن الأمر إحساساً بالتشاؤم أو بالتفاؤل ، الواقع الذى كنت أعيشه وقتها جعلنى أشعر بهذا الإحساس ، لا تتصورون مدى الحزن الذى ألمَّ بى ، و بزوجات و أمهات الضباط و الجنود بالمركب " رشيد " ، منذ أن أذاعت إسرائيل فى نشرة أخبارها بأنها أغرقت المركب " رشيد " ، و هى بمياه شرم الشيخ ، الاتصالات التليفونية لم تنقطع يومها بالمنزل ، الكل يسأل ويستفسر ، وفى نفس الوقت انقطعت الأخبار عن المركب ، لا أحد يخبرنا بأن المركب أرسلت إشارة تدل عن مكان وجودها ... لولا الإيمان بالله ، و لولا السكينة التى نزلت على قلبى ... لكنت قد ارتديت الملابس السوداء معلنة الحداد على زوجى ...

يتهدج صوتها ، تدمع عيناها ، وهى تحكى ذكرياتها الأليمة هذه ، بينما ينظر الجميع إلى الجد ، يستفسرون منه عن حقيقة ماأعلنته إسرائيل من خلال إذاعتها ، يجيبهم الجد بأنه سيرجئ الحديث عن الفرقاطة " رشيد " إلى نهاية حديثه ، كما سبق أن وعدهم ، و ربما فعل ذلك أيضاً ؛ ليخفف عن زوجته ، و بدأ يحكى لهم عن عملية أخرى ، و هى معركة المدمرة " الناصر" أمام شاطئ الإسكندرية .

قال الجد :

–كان ذلك يوم أول نوفمبر .. إزداد التوتر العسكرى ، ومع إزدياده كثفت القوات البحرية من نشاطها ؛ لحماية السواحل المصـــرية ،

كان من ضمن خطتها تكليفها لقطع من أسطولها البحرى للإبحار بطول ساحل البحر الأبيض ، تنفيذاً لذلك كلفت المدمرة " الناصر " لتمر بالمنطقة ، و رفعت المدمرة أعلى درجات الاستعداد للقتال ، كل جنود أطقم أسلحتها كانوا فى يقظة تامة ، ومستعدون للاشتباك وبينما المدمرة تقوم بمرورها ، شاهد طاقمها طائرة معادية تطير على ارتفاع منخفض حول المدمرة ، تم التعامل معها فوراً بإطلاق النيران من الأسلحة المضادة للطائرات ، هربت الطائرة حتى لاتصاب من القذائف التى نثرت حولها فى السماء ، تبين فيما بعد أنها طائرة استكشاف قدمت من إحدى حاملات الطائرات المعادية ، فلم يمض على هروب الطائرة وقت طويل ، إلاّ ووجدت المدمرة "الناصر" أفواجاً متتالية من الطائرات المعادية ، تلقى عليها قذائفها من كل إتجاه ، فى المقابل كان رجال المدمرة رابطى الجأش ، فقاموا على الفور بتصويب مدافعهم المضادة للطائرات فى إتجاه تلك الطائرات ، و يطلقون عليها قذائفهم ، وطال زمن المعركة ، فما أن تنتهى هجمة جوية ، إلا و تأتى خلفها هجمة أخرى ، و رجال المدمرة بسواعدهم القوية ثابتون ، يقاومون بكل شجاعة ، هجوم الطائرات المعادية ، فرغم كبر حجم المدمرة ، فإن الله حمى المدمرة ، حيث طاشت قذائفهم ، و تستمر المعركة و يطول زمنها ... و هاهى أسراب أخرى من الطائرات المعادية تأتى من بعيد .. يليها أسراب أخرى .. لم يكن أمام قيادة المدمرة إلاّ أن تأمر بعمل ستائر دخان كثيفة ؛ وذلك لتأمين المدمرة ضد

تلك الهجمات .. و فعلاً عادت تلك الأسراب إلى قواعدها بحاملات الطائرات ، و لم تأت بعدها أية طائرات أخرى .

يبتسم الجد ، وهو يكمل حديثه :

– لقد ظنت الطائرات أن المدمرة " الناصر" أصيبت من جراء القذف الجوى ، و أن النيران اشتعلت فى كل أجزائها ؛ و ذلك نتيجة صعود تلك السحابة من الدخان . و المدهش أن أحد المراجع الأجنبية المختصة بالسفن الحربية ذكر فى عدد ١٩٥٧ ، أى العام التالى للمعركة مباشرة ، بأن المدمرة " الناصر" غرقت فى تلك المعركة أمام ساحل الإسكندرية ، وهو الأمر الذى لم يحدث إطلاقاً.

يستطرد الجد فى حكيه ، قائلاً :

– و عند دخول المدمرة لميناء الإسكندرية بعد المعركة ، أطلقت السفن الحربية و التجارية الصفارات تحية لها ، و لأن المعركة كانت أمام شاطئ " اسبورتنج " ، فقد أطلق عليها الأهالى معركة اسبورتنج البحرية .

– لقد شاهدت بنفسى تلك المعركة الحربية .

قالت الحاجة إنعام عبارتها هذه ، فتحولت إليها كل الأنظار ، وبلهفة يسألها خالد الجالس بجوارها ، وفى عينيه بريق :

– هل ما تقولينه صحيحاً يا جدتى ؟ أم أنك تمزحين ؟

لم تجاوبه الجدة على الفور ، فضلت أن تنظر إلى عيون مستمعيها أولاً ، أحست بأنهم لا يصدقون مثل خالد ... ماذا تفعل ؟ لم يكن فى نيتها الاسترسال فى الحكى .. كانت تود أن تخبرهم بأنها شاهدت المعركة فقط .. أما الآن فقد أصبحت مرغمة لتؤكد لهم صدق ما ذكرته عن مشاهدتها .. قالت :

– أتذكر ما حدث فى ذلك اليوم جيداً .. كنا وقت الظهيرة تقريباً .. عندما طرقت جارتى على الباب بشدة .. بسرعة أخبرتنى بأن معظم السكان بالعمارة صعدوا إلى السطح ؛ ليشاهدوا طائرات الإنجليز و هى تحاول ضرب سفينة مصرية .. ثم تركتنى مسرعة لتصعد إلى السطح هى الأخرى .. لحقت بها و معى الخادمة الصغيرة ، بنفس الملابس التى كنت أرتديها .. كان ينتابنى الهلع والخوف .. لم أكن أخشى شيئاً على نفسى .. بل الهلع الذى اصابنى يرجع لخشيتى من إصابة السفينة ، عندما وصلت إلى السطح وجدت العشرات من السكان ، كلهم من النساء والأطفال .. لاحظت أن السيدات كن يرتدين أثوابهن التى يرتدينها بالبيت ... لم يكن لديهن الوقت لتغيير ثيابهن مثلى ...

و تنطلق الجدة فى الحكى ، و قد نشطت ذاكرتها :

– شاهدت السفينة ، و الطائرات تحاول ضربها .. كانت الطائرات تأتى فى أسراب متتابعة .. لم تكن السفينة قد غطتها سحابة الدخان ... كثيرات من السيدات على السطح كن ينظرن إلى

الطائرات و يشتمن الإنجليز و الفرنسيين ؛ لأنهم هم المعتدون .. كنت أدعو الله فى سرى ، أن تعود السفينة للميناء سالمة .. شعرت بأن زوجى يعمل عليها ، رغم علمى بوجوده بشرم الشيخ ... دعوت من قلبى إلى الله أن يحمى جنودنا ، و أن يعودوا لأهلهم سالمين .

تتوقف برهة ، ثم تواصل الجدة الحكى :

– عندما أطلقت السفينة سحابة الدخان .. كدت أنهار .. ظننت أنها أصيبت ، ورغم علمى بأن السفن أحياناً تطلق مثل هذه السحابة للتمويه .. لكن مجرد احتمال إصابتها ، ثم احتمال غرقها ، جعلنى فى حالة خوف .. أكثرت من تلاوة القرآن فى سرى .. لكننى تشجعت رويداً رويداً ، و زال عنى الخوف عندما وجدت السيدات من حولى فى حالة طبيعية ، و أنهن يعتقدن بأن السفينة لم تصب وأن هذا الدخان للتمويه على الطائرات . عندما ذهبت الطائرات ولم تعد .. ثم شاهدنا السفينة تبحر سالمة فى إتجاه الميناء .. انطلقت الزغاريد من بعض النسوة الواقفات حولى .. سمعت زغاريد تنطلق من أسطح العمارات المجاورة .. لم أكن قد لاحظت من قبل وجود النسوة و الأطفال على الأسطح القريبة ، كان كل همى النظر لأعلى ، للطائرات ، أو النظر فى إتجاه السفينة .. وعندما نظرت إلى شارع البحر .. فوجئت بأنه يكتظ بآلاف من الرجال و الشباب كانوا يشاهدون المعركة .

خلال حكيها ، كان خالد ينظر إلى جدته مبهوراً ، سألها فور انتهاء حديثها ، قائلاً :

– لكن يا جدتى ألم تخافى ، و أنت واقفة على السطح ، و الطائرات تطلق قذائفها ؟

– ما فعلناه أنا و غيرى ، يعتبر خطأ ؛ لاحتمال إصابتنا بإحدى الشظايا .. لكن هذا ما حدث .. كان الحماس يملأ كل جوانبنا ، ربما لأننا كنا نريد وقتها أن نظهر تحدينا للأعداء ؛ و لعدم خوفنا منهم .

يعقب الجد على ماحدث بالنسبة لمعركة اسبورتنج البحرية بقوله لهم ، بأنه حدث فى نفس اليوم ، أن هوجمت الفرقاطة "طارق" من الطائرات المعادية أيضا ، وحدث بها إصابات طفيفة ، وقد أبلى طاقم الفرقاطة بلاء حسنا فى التصدى لهجوم الطائرات ، بعدها عادت الفرقاطة للميناء سالمة هى الأخرى

و يضيف لهم الجد بقوله بأن عزيمة جنودنا ، وثقتهم فى أنفسهم و إيمانهم بأن الله سوف ينصرهم ؛ لعدالة قضيتنا .. كل هذا كان وراء وقفاتهم الشجاعة ، و هم يتصدون من معركة لأخرى ضد أسطول الدول المعتدية .

و يواصل الجد حكيه عن المعارك التى خاضتها القوات البحرية ضد دول العدوان الثلاثى ، و منها إغارة قواتنا على ميناء حيفا الإسرائيلى يوم ٣١ أكتوبر ، بواسطة الفرقاطة " إبراهيم " ، قال :

– وقع العدوان الإسرائيلى على قواتنا بسيناء يوم ٢٩ أكتوبر ، كما ذكرت لكم ، لم تكن المؤامرة بين دول التحالف الثلاثى قد اتضحت معالمها ، حيث كانت الرؤية توحى بأن الحرب قد اشتعلت بين مصر وإسرائيل فقط ، و أن إسرائيل انتهزت الفرصة بانشغال القيادة السياسية بمصر بمشكلات تأميم قناة السويس ، فأرادت أن تثبت وجودها بهذا الاعتداء ؛ لعلها تستفيد من ورائه شيئاً ، وعلى أثر ذلك تقرر أن تتحرك القوات البحرية بواجباتها ، و منها توجيه قصفة نيران ضد المنشآت العسكرية بميناء " حيفا " ، وكلفت الفرقاطة " إبراهيم " للقيام بتلك المهمة .

يكمل الجد حديثه بقوله :

– تحركت الفرقاطة " إبراهيم " ، وفق الخطة ، نجحت فى الوصول إلى ميناء حيفا ، و أمطرت منطقة الهدف بوابل من طلقاتها عيار ٤ بوصة ، ثم استدارت الفرقاطة عائدة إلى قاعدتها ، بعد أن نجحت فى تنفيذ مهمتها ، إلاّ أن بعض قطع الأسطول الفرنسى ، الذى تبين أنه كان يحمى سواحل إسرائيل ، قد اشتبكت مع الفرقاطة " إبراهيم " ، و قد تصدت الفرقاطة المصرية بكل شجاعة للهجوم البحرى الفرنسى ، و الذى كان يعاونه عدد من الطائرات الفرنسية ، التى كانت تُغير فى أفواج متلاحقة ؛ بهدف إغراق الفرقاطة المصرية ، التى كانت تقاتل بكل بسالة السفن ، موجهة مدافعها عيار الـ٤ بوصة إليها ، وتوجه مدافعها المضادة للطائرات

ضد أسراب الطيران الفرنسى . و يرجع السبب فى عدم تمكن الطيران المصرى من معاونة الفرقاطة " إبراهيم " إلى الهجوم الجوى المعادى على المطارات المصرية .

و بنبرة حزن يكمل الجد حكايته قائلاً :

– و استبسل رجال الفرقاطة فى صد العدوان إلى أن نفذت ذخيرتهم وقد حدثت إصابات مختلفة بالسفينة أحدثت خسائر فى المعدات والأرواح ، فضلاً عن تعطلها و اشتعال النيران بها .. وعلى الفور قرر قائد الفرقاطة إخلاء السفينة ؛ حفاظاً على أرواح جنود السفينة و إغراقها . و قد تنفذ ذلك لولا تدخل السفن الفرنسية والإسرائيلية بإسراعها بمنع عملية الإغراق .

و يرن جرس التليفون بالردهة ، تشعر الجدة من نوع الرنين أن المتحدث هو أيمن ، فتهب واقفة .. تهرع إلى التليفون .. تمسك السماعة بسرعة ثم تجلس وقد ارتسمت على شفتيها تلك الابتسامة الحانية ... فقد تأكدت من أن ابنها هو الطالب ، يخبرها عن محاولته الاتصال بهم منذ عدة أيام .. لكن دون جدوى ، تجيبه بأن التليفون كان معطلاً و لم يتم إصلاحه إلاّ أمس فقط ، يسألها للإطمئنان عن كل أفراد الأسرة .. تطمئنه بأن أحوالهم جميعاً بخير تبادله السؤال عن أحواله و أحوال زوجته و أولاده .. يطمئنها عنهم بدوره . ثم يبث لها شكواه بما يصل لعلمه عن طريق الصحف

المصرية التى يقرأها بالسعودية هو و بعض المصريين ... فتسبب له القلق ، فقد قرأ بأن الشركة التى تتولى بناء البرج السكنى الذى سيسكنه ، والتى لها استثمارات عديدة فى العقارات ، قد أحيل رئيس مجلس إدارتها و آخرون من موظفى البنوك إلى النيابة للتحقيق معهم فى بعض الأمور التى نسبت إليهم .. ويسأل أيمن والدته عن أحوال البناء بالبرج ، وهل يسير وفق المعدل الطبيعى ؟ يتجه الجد إلى حيث تجلس الجدة ، ويطلب منها سماعة التليفون .. يجيب على ابنه بأن البناء يسير وفق المعدل الطبيعى .. ويطمئن أيمن ، ويبلغ الجد تحياته لكل أفراد الأسرة .

يعود الجد وزوجته إلى مقعديهما بحجرة الجلوس ، يخبرهم بأنه أجاب على تساؤل أيمن عن حال البناء بالبرج ، بأن العمل به يتم طبيعياً ، و لم يتأثر بالتحقيقات التى تجريها النيابة ، بالرغم من أنه لم يشاهد المبنى من فترة تزيد عن الشهر ، و يبرر ذلك بقوله :
– يكفى أيمن ما يشعر به من آلام الغربة .

ثم يستطرد فى الحديث ، موجهاً سؤاله لصلاح :
– و ماذا نفعل لمواجهة الفساد الذى استشرى فى كل الأماكن ، وظهر ذلك واضحاً فى البنوك ؟

يرد عليه صلاح بداية لحوار يطول بينهما :
– و ماذا تفعل الحكومة ؟ ... فور علمها قدمت المسئولين للنيابة

للتحقيق معهم ، ألا يكفى هذا ؟

– بأموالهم التى نهبوها يستقدمون للدفاع عنهم كبار المحامين ، ويستغلون الثغرات العديدة فى القوانين ؛ للحصول على أحكام البراءة .

– فى المقابل يوجد لدينا قضاء نزيه .

– يقولون أن بعض أعضاء مجلس الشعب يساعدونهم على ارتكاب تلك المخالفات ، و بعضهم شريك فيما نسب إليهم .

– هم نسبة قليلة تعد على أصابع اليد .. من يثبت ضده دليل اتهام لا تحميه حصانته البرلمانية .. و يتم رفعها عنه ثم إحالته للنيابة للتحقيق معه كأى فرد من أفراد الشعب .. و الأمثلة على ذلك كثيرة ، و تطالعنا الصحف بها .. بل قُدِّمَ بعض أعضاء مجلس الشعب للمحاكمة معهم أيضاً .

– لستُ متفائلاً مثلك يا صلاح .

– الأيام ستثبت لك أن القضاء لا يخشىأى إنسان ... لا يعنيه إلاّ العدالة فقط .

– أتمنى ذلك حتى ينصلح حال البلد .

تتدخل الجدة فى الحديث الدائر بين زوجها و زوج ابنتها بقولها :

– مسكين أيمن ... حاول أكثر من مرة أن يتصل بنا .. لكن التليفون كان معطلاً .. وعدنا مرة أخرى للأعطال التى كنا قد استرحنا منها .

و يعقب أحمد على حديث الجدة بقوله ، و هو يبتسم :
- شركتنا أراحت نفسها ؛ لكى لا تتعطل تليفونات الشركة ، فإنها تدفع شهرياً عشرين جنيهاً " لأوسطى" التليفونات المعين بمنطقة الشركة ... بشرط ألاّ يكون قد أصابها العطل خلال هذا الشهر ...

تقول انتصار لزوج ابنتها :
- إنها هبة بالإكراه بهذا الشكل يا أحمد .
- معك حق .. لكنهم فى الشركة يسمونها إكرامية .. و المدهش أن هذا " الأوسطى " يحضر كل أول شهر ؛ ليتسلم هذه الإكرامية ، وكأنه موظف بالشركة يتسلم راتبه الشهرى .

يقول الجد معقباً :
- أنتم تشجعونهم على الفساد .
- شركات عديدة تفعل مثلما نفعل ، هدفهم مصلحة الشركة ومصلحة العملاء الذين يودون الإتصال بتلك الشركات .

يتدخل صلاح مبتغياً إنهاء تلك الأحاديث الجانبية ؛ ليتمكن الجد من إكمال حديثه عن الحرب ، موجهاً حديثه للجد :
- نعود للحديث عن الحرب أجدى .

عندئذ تقف الجدة طالبة من زوجها الانتظار قليلاً ؛ لتقدم لهم بعضاً من قطع الهريسة ، التى حملتها سلوى معها عند مقدمها للزيارة هى وزوجها .

٨

بعد أن فرغوا من أكل الحلوى ، وأبدوا استحسانهم عنها ، خفتت أصواتهم تدريجياً ، إلى أن تلاشت نهائياً .. أصبحوا فى حالة استعداد تام للاستماع والاستمتاع بأحاديث الجد ، الذى سره أن يراهم فى صورة المتلهف لمعرفة أخبار وأسرار تلك المعارك الحربية التى مرت عليها السنون ، وكادت أن تُمحى من ذاكرة الناس .

اعتدل الجد فى جلسته ، قائلاً :

– كانت من أروع المعارك التى تدل على شجاعة المقاتل المصرى ، وتبرهن على استبساله فى الدفاع عن أرضه .

ويزداد تلهف الحاضرين لمعرفة عن أى معركة يتحدث الجد .. وكأنه يحس بتساؤلهم ، فإذا به يكمل حديثه بقوله :

– إنها معركة الدفاع عن مبنى القاعدة البحرية ببورسعيد .. كان يدافع عن هذا المبنى مائة وثلاثون فرداً من القوات البحرية .. أو بتعبير آخر أصدق ، كانوا مائة و ثلاثين بطلاً .. نعم كانوا أبطالاً صمدوا بقوة أمام القوات المعادية .. حتى سقطوا ينزفون الدم جرحى أو نالوا الشهادة .

تبدو على وجه الجد علامات الجدية و الحماسة ، وهو يكمل الحديث :

- كان ذلك فى اليوم الخامس من نوفمبر ، أى بعد أن مر على العدوان عدة أيام ، حاولت القوات البريطانية والفرنسية احتلال مدينة بورسعيد ، و قد وضعت نُصب أعينها احتلال مبنى القاعدة البحرية بالمدينة ، دفعت قيادتهم بعناصر من القوات الخاصة البريطانية ، المدربة تدريباً عالياً ؛ للقيام بمهمة الاستيلاء على المبنى ، ظنوا أنفسهم بأنهم سيقومون بنزهة بحرية ، ثقتهم كانت كبيرة ، و لِمَ لا ؟ فهم يعلمون بكل دروب المدينة ، و القواعد العسكرية التى بها ... ألم يحتل الإنجليز مصر أكثر من سبعين عاماً ؟ . و ساعد على ظنهم هذا أن السماء أصبحت مفتوحة أمامهم ، بعد أن تم تدمير الطائرات المصرية على الأرض وهى رابضة بمطاراتها .

و مع هذا خاب أمل قواتهم فى الاستيلاء على القاعدة البحرية . فلم يكن الأمر مجرد نزهة بحرية تقوم بها القوات البريطانية والفرنسية ، كما أعلن قادتهم قبل الحرب ، فقد فوجئوا بشراسة مقاتلينا فى الدفاع عن المبنى ... صمم جميع المقاتلين على المقاومة حتى يلفظ آخر رجل منهم أنفاسه ... هانت أرواحهم فى سبيل رفعة ومجد الوطن . كانت الإذاعة المصرية تواصل إذاعة الأناشيد الوطنية .. كلمات نشيد الله أكبر ... الله أكبر ... كما يرددها المنشدون ، كانت تلهب حماس الجنود وكل أفراد الشعب .

رجع رجالهم خائبين ... فلم يفلحوا فى اقتحام مبنى القاعدة ... أبلغوا قادتهم بضرورة أن يُقصف المبنى بمدافع الأسطول أولاً

و استخدام الطائرات الحربية فى إلقاء قنابلها عليه ؛ كى تضعف مقاومة الرجال بالمبنى ، فيتمكنون بعد ذلك من الاستيلاء عليه .

يصمت الجد للحظات قصيرة ، يسترجع فيها ذكرياته عن تلك المعارك المجيدة ، ثم يواصل الحكى :

– ما حدث فى القاعدة البحرية من مقاومة شرسة ، كان يحدث مثلها فى نفس الوقت فى بورسعيد و بور فؤاد عندما أسقطت القوات المعتدية رجال مظلاتها لاحتلال المدينتين ، كانت المقاومة الشعبية ، وقد انضمت لقوات الجيش ، تقاتل الغزاة من شارع إلى شارع ، و من بيت إلى بيت ، و لم تفتر مقاومتهم ، ولم تهدأ ، ولو للحظة .

فى اليوم التالى ، أى السادس من نوفمبر .. يُطلق على مبنى القاعدة قذائف من بعض سفن الأسطول ، وتلقى الطائرات المعادية بأحمالها من قنابل ثقيلة على المبنى ... و الأبطال صامدون رغم تناثر جثث عديدة منهم ، وإصابات خطيرة لحقت بأجسام بعضهم ، و من بقى منهم حياً ، سليماً أو مصاباً ، ظل يقاوم ، يطلق من مدفعه الرشاش على كل من تسول له نفسه محاولة دخول المبنى ولم تستطع القوات المعادية من الاستيلاء على المبنى إلاّ على أشلاء و جثث هؤلاء الأبطال ، حيث ظل القتال الدائر بينهم منذ الخامس من نوفمبر وحتى الثامن منه ، ولم تستطع قوات الأعداء

اقتحام المبنى إلاّ بالاستعانة بالدبابات و المدرعات ، وبعد أن دمرت الطائرات المبنى ، وأحالته إلى أنقاض .. فى هذا اليوم الثامن من نوفمبر ، يرسل ضابط الإشارة البحرى المعين مع رجاله إشارته الأخيرة ، و من حوله جثث الجنود الذين سقطوا قتلى من جراء القذف البحرى .. كانت إشارته تحمل كلمات كلها صدق و نبل و حب للوطن .. كانت الكلمات هى :

" سندافع لآخر طلقة عن القاعدة . سأحرق المبنى فى النهاية ، وتدمر الأجهزة ، و تعدم الوثائق . لقد بدأوا الهجوم الآن . يرعاكم الله و لينصر مصر " .

و بعد قتال عنيف بين القوات البريطانية و من بقى حياً من أفراد قوة الإشارة البحرية التى كانت تدافع عن المبنى ، تمكنت القوات المعتدية من اقتحام المبنى بعد أن مُنيت بخسائر عديدة فى الأفراد و المعدات . و أمام استبسال المقاتلين المصريين ، لم يكن هناك مفر إلاّ و أن يشيد القائد البريطانى بقوة الدفاع المصرية من رجال البحرية الذين استبسلوا فى قتالهم ، ويسجل عنهم ذلك فى كتاب[1] صدر ببريطانيا عن تلك الحرب ، حيث قرر الكاتب عن تلك المعركة بأنها كانت من أكثر المناطق التى لاقى فيها البريطانيون عناداً و مقاومة .

---

(١) Suez - The seven day war , by A . J . Baker - page ١٥٤

سكت الجد فترة زمنية قصيرة ، ثم نظر لمستمعيه ، بعدها سألهم :
– ألم تلاحظوا شيئاً على تلك المعارك ؟

انتظر فترة ، و لما لم يجبه أحد على سؤاله ، أكمل حديثه ، قال :
– وجهت بريطانيا وفرنسا إنذارهما للدولتين المتحاربتين ،أى مصر وإسرائيل ، بحجة حماية القناة ، لتأمين وسلامة مرور السفن بها فلو كانت الدولتان صادقتين فعلاً لِمَا تهدفان إليه من إنذارهما ، لاكتفيتا بتواجدهما بالقناة ، لكنهما حاربتا مصر فى الإسكندرية البعيدة كل البعد عن القناة ، و قامتا بالهجوم بطائراتهما على المطارات المصرية ، ألا يعنى ذلك أن هدفهما الأصلى كان لتقليم أظافر عبد الناصر ، و كسر شوكته بالقضاء على عتاد جيشه من سفن وطائرات ... و بالتالى القضاء على مشروعه بالنهوض بمصر ، وبعثه للقومية العربية ؟

تؤيد انتصار ، بصفتها مدرسة تاريخ ، والدها بشدة ، وتقول :
– تماماً .. تماماً .. مثلما حدث فى موقعة نفارين ، والإنذار الذى وُجِّه لإبراهيم باشا وقتها .

تتحول الأنظار إلى انتصار ، ينظر الجد إلى ابنته ، وهى تتحدث بثقة ، وفى عينيه بريق الاعتزاز والفخر بها ، بسرعة يسألها خالد :

– درسنا موقعة نفارين فى حروب المورة أيام محمد على باشا .. ولكنى لا أفهم ما تعنيه يا والدتى بشأن الإنذار .

ترد انتصار على ولدها ، بقولها :

– الآن نحن هنا نستمع لجدك ... ويمكن أن اشرح ما أعنيه لك بالمنزل ، بعد ذهابنا .

يعتب الجد على ابنته ، و يقول لها برفق :

– لا .. لا .. يا انتصار .. ليس معك حق .. إننا كعادتنا دائماً ، بعد كل غداء سوياً ، كنا نتحدث فى أمور شتى .. ولكن اليوم .. الأمر يختلف ..و حديثى هنا لأن خالد طلب أن أحدثه عن تلك الحرب بعد مشاهدته فيلماً عن تأميم قناة السويس .. فاشرحى له ماقصدتيه ، فحديثى كله كان من أجل خالد .

و يؤيد الجميع ما أبداه الجد ، بينما الجدة تربت بيدها على ظهر خالد و تضحك و هى تحدث ابنتها ، قائلة :

– اعتبرى حديثك هذا درساً خصوصياً يا انتصار .

تبادلها انتصار الضحك ، وهى تقول :
- مجاناً يا أمى ؟

ثم تعتدل فى جلستها ، و تنظر إلى صلاح زوجها ، فتجد فى عينيه الرضا ، و يشجعها ذلك على التحدث بثقة ، محاولة أن تبرز مهارتها فى الشرح الذى تتميز به فى مدرستها ، قالت :
- ثـار اليونانيـون ضد الحكم العـثمانى ، و اشتـدت ثورتهم فى العشرينيات من القرن التاسع عشر ، حيث طالبوا بالاستقلال ، وأيدتهم فى طلبهم الدولة الروسية ؛ بهدف تدخلها فى شئون الدولة العثمانية ، لأن قياصرة روسيا ، وقتها ، كانوا يطمعون فى ممتلكات العثمانيين .
أخذت السفن اليونانية المسلحة تهاجم السفن التجارية التركية فى بحر الأرخبيل ، وهو البحر الفاصل بين أراضى تركيا واليونان ، وقد دعا ذلك أن قام الأتراك بمهاجمة ثوار المورة بكل حزم وشدة لكن اليونانيين استمروا فى التعدى على السفن التركية ، بل وتعدوا أيضاً على بعض السفن المصرية ، حيث هاجم بعض القراصنة اليونانيين بعض السفن المصرية التجارية ، وقتلوا من فيها . لهذا فإن محمد على لبى طلب السلطان العثمانى فورا بإرسال الأسطول المصرى لتطهير البحر المتوسط من أعمال القرصنة .
و تستطرد انتصار فى حديثها :

- أعد محمد على حملة بحرية كبيرة من السفن الحربية المجهزة ، وتحركت من ميناء الإسكندرية ، متجهة إلى جزر اليونان ، حيث دارت معارك بينها وبين سفن اليونانيين ، انتهت بغلبة الأسطول المصرى بجزيرة كريت ، ثم انضم الأسطول المصرى إلى الأسطول العثمانى ، و قد نجح الأسطولان فى إلحاق الهزيمة بالعصاة من اليونانيين . بعدها عاد الأسطول المصرى للإسكندرية لإصلاح بعض الأعطاب التى ألمت به ؛ تمهيداً لمعاودة الخروج مرة أخرى .

لم تمض فترة طويلة إلاّ و يطلب السلطان العثمانى من محمد على إرسال حملة برية و بحرية لمهاجمة جزيرة كريت ؛ لتخليص الحامية التركية المحاصرة بالجزيرة ، و الضرب بيد من حديد على الثوار بها . و ينفذ محمد على طلب السلطان ، و تدور معارك حامية بين قوات الحملة و الثوار ، تنتهى باستقرار الأمن بربوع الجزيرة . و يحدث مثل هذا فى جزيرة قبرص و رودس بالاستعانة بالقوات المصرية .

لكن القوات العثمانية تفشل فى إخماد ثورة المورة ، رغم الجهود التى بذلتها ، فيستعين السلطان بمحمد على لأداء تلك المهمة ، وتحفيزاً له فقد نصبه السلطان والياً على المورة أيضاً .

وتكمل انتصار شرحها عن المعارك الحربية التى دارت بقولها :

- جهز محمد على أسطولاً ضخماً بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، ومـــعه

قوات برية بأعداد هائلة ، و تمكن من السيطرة على بعض الجزر بالأرخبيل . ثم انضم الأسطولان المصرى و العثمانى إلى بعضهما حيث دارت معارك بينهما و بين السفن اليونانية . وقد أنزل إبراهيم باشا قواته فى شبه جزيرة المورة ، لكن كان عليه مهام أخرى ، و هى فك الحصار عن القوات التركية السيئة التنظيم والتدريب ، ومقاتلة الثوار والقضاء عليهم . و نجح إبراهيم باشا فى فك الحصار و تخليص القوات التركية ، و بهذا تفرغ للثوار ، حيث حاصر مدينة " نفارين " ، وهى من المعاقل الكبيرة لثوار المورة ، وقد حاصرها براً و بحراً .

يتابع أفراد العائلة انتصار باهتمام بالغ ، وهى تتحدث ، قالت :
– و يشتد الحصار على مدينة " نفارين " ، فلم يكن أمام حاميتها إلاَ التسليم ، بشرط أن يؤمنهم إبراهيم باشا على حياتهم ، حيث يوافق ، و يدخل المدينة منتصراً . و يعزز هذا الانتصار موقف القوات المصرية فى المورة ، و يصيب الثوار بإحباط شديد فى البر ، فيعملون على إجهاض هذا الانتصار بالهجوم على الأسطول المصرى لسلب الانتصار من المصريين . ثم تدور بعد ذلك عدة معارك مختلفة ، وفى مدن أخرى ، و يطلب إبراهيم باشا من والده مده بقوات إضافية لنجدة القائد التركى ؛ لفتح مدينة " مسولونجى" و ينفذ محمد على ما طلبه ابنه ، و تصل الإمدادات إلى ميناء نفارين ، حيث تنزل بعض قواتها ، ثم تتجه القوات المتبقية بقيادة

إبراهيم باشا فى إتجاه مدينة " مسولونجى " ؛ لينضم بقواته إلى القوات العثمانية التى تحاصر المدينة ، و تقع عدة معارك فى أماكن عديدة ، فى الوقت ذاته ، تأخذ القضية اليونانية التى تطالب بالاستقلال عن الدولة العثمانية فى الاستحواذ على عطف الأوروبيين ، خاصة بعد المعارك التى منيت فيها القوات اليونانية بعدة هزائم .

و تكمل انتصار حديثها بقولها :

- بدأت الدولة الروسية فى التدخل لحل المشكلة ، مما دعا بريطانيا إلى أن تتدخل هى الأخرى ، حتى لا تترك الحل فى يد الدولة الروسية وحدها ، فضلاً عما عرفته من نمو الأسطول المصرى وتحركاته العديدة ، و قد اتفق الطرفان الروسى و البريطانى على إعطاء اليونان الاستقلال الذاتى فى ظل السيادة العثمانية . وعقدت اتفاقية بين روسيا و بريطانيا وفرنسا على التدخل لحل النزاع بين تركيا و اليونان ، و أن يطلب منهما وقف الأعمال القتالية ؛ حتى تتمكن تلك الدول من حل النزاع ، مع إعطاء مهلة للسلطان العثمانى مدتها شهر لإبداء رأيه . فى الوقت نفسه أرسلت الدول الثلاث قطعاً من أسطولها إلى بحر الأرخبيل ؛ للضغط على السلطان ، ولمنع الإمدادات من أن تصل جزيرة المورة . وعقد لواء القيادة العامة لأسطول الدول الثلاث إلى القائد الإنجليزى ، الذى أرسل إنذاراً إلى إبراهيم باشا يتوعده إذاما قام بالهجوم على

أى جزء من الأجزاء التابعة لليونان ، ثم كرر هذا الإنذار. خلال تلك الفترة ، اجتمع إبراهيم باشا بالقائد الفرنسى و بالقائد الإنجليزى ، كل على حدة ، ثم اجتمع معهما سوياً ، و لم يكن ذلك بغية أن يصل الجميع إلى حل ، فالحل تم وضعه بمعرفة الدول الثلاث ، و إنما كان يهدف إبراهيم باشا كى يتم المعاملة بالمثل ، أى أن يوجه إنذاراً للطرف الآخر ، لليونانيين .

و تواصل انتصار شرحها :

– احترم القائد إبراهيم شروط الهدنة ، ولم يقم بأى اعتداء ضد اليونان ، إلاّ أن اليونانيين هاجموا بلدة " باتراس " الواقعة تحت سيطرة القوات العثمانية و المصرية ، فاعتبر إبراهيم باشا هذا العمل خرقاً للهدنة ، و أبلغ القائد الإنجليزى ليحول دون استمرار الأعمال العدوانية ، و قد أجابه القائد الإنجليزى بإجابة مائعة ، فقام إبراهيم باشا وفقاً لمصلحته بأن أرسل تعزيزات عن طريق البحر للقوات المصرية الموجودة بتلك البلدة ، و انتهز القائد الإنجليزى هذه الفرصة ، و اعتبر أن هذا التصرف من إبراهيم باشا تحدياً لهم ونقضاً للهدنة ، فأنذره بالحرب إذا لم تنسحب قواته ، فما كان من إبراهيم باشا إلاّ الانسحاب والعودة إلى نفارين حتى يبطل حجة القائد الإنجليزى ، خاصة أنه يعلم بقوة أساطيل الدول الثلاث .

كان القائد الإنجليزى يعلم أن إبراهيم باشا لن يسكت ويقف مكتوف

الأيدى أمام الاعتداءات اليونانية على قواته فى شبه جزيرة المورة ، بل إنه حتماً سيهب مسرعاً للدفاع عن تلك القوات ، عندئذ سوف تعتبر إنجلترا هذا التصرف خرقاً لشروط الهدنة ، ويكون مبرراً للدول الثلاث كى تهاجم الأسطول المصرى وتدمره . وماتصورته إنجلترا فقد حدث ، و تم مهاجمتهم للأسطول العثمانى والمصرى داخل ميناء نفارين ، ونظراً لأن أساطيل الدول الثلاث كانت تتميز بقوة مدافعها ، وبعد مرماها عن الأسطول المصرى والأسطول العثمانى ، فكان لسفن الحلفاء الغلبة ، وهو ما كانت تهدف إليه بريطانيا لتحطيم الأسطول المصرى ، فقد كانت بريطانيا قلقة لنموه فى البحر الأبيض المتوسط ، وقد واتتها الفرصة للقضاء عليه عندما تدخل فى النزاع اليونانى التركى (١).

و يعقب الجد على حديث ابنته قائلاً :

– تماماً مثلما حدث عام ١٩٥٦ ، فبريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، لم يرتاحوا لنمو قوة الجيش المصرى ، وتسليحه بالأسلحة الشرقية ، وحصوله على طائرات وسفن حربية وغواصات ودبابات وغيرها ، فانتهزوا فرصة تأميم قناة السويس للقيام بتدمير جيش مصر الواعد .

---

(١) تاريخ البحرية المصرية ــ البحرية المصرية فى العصر الحديث ــ الدكتور محمد محمود السروجى ــ جامعة الإسكندرية ١٩٧٤

يعلق صلاح على ما يقوله الجد بقوله :

– و هو ما يحدث هذه الأيـــام أيضاً ، و إن اختلفت أساليب الـــدول الاستعمارية فى الضغط على الدول الصغيرة ، فقد أصبحت الضغوط اقتصادية فى المقام الأول .

و يستمع الحاضرون إلى المؤذن و هو يرفع أذان العشاء ، فيكرر بعضهم مقاطعه همساً عقب أداء المؤذن لكل مقطع ، وخلاله يتوقف الحديث بينهم ، و حتى يتم الانتهاء منه .

يصل الجد فى سرده عن أحداث الحرب ، إلى الجزء الذى عايشه بنفسه فعلاً ، عندما كان ضابطاً بالفرقاطة " رشيد " ، كلهم من حوله يجلسون فى اشتياق لمعرفة أحداث السفينة ، التى أعلنت إسرائيل فى إذاعتها فى الثانى من نوفمبر عن غرقها ، بعد إمطارها بوابل من قذائف طائراتها ، و يتخيلون وقع الخبر على أسر الضباط والجنود الذين كانوا يعملون على السفينة وقتها .

لا يبدو على الجد أية مظاهر للتعب أو الإرهاق نتيجة لسرده طوال تلك الساعات ، بل العكس هو الصحيح ، فتدب فى أوصاله الحيوية والانتعاش ، لاسيما حين يصل بحديثه عن "رشيد" ، فرقاطته وقت الحرب التى يعتز بذكرياته عنها ، قال ليُذَكِّر مستمعيه:

– كما حكيت لكم من قبل ، بأن الفرقاطة "رشيد" كانت متمركزة وقت نشوب القتال بميناء شرم الشيخ ، كنت وقتها برتبة اليوزباشى البحرى ، و هى الآن تعادل رتبة النقيب البحرى ، كان قائد الفرقاطة–كما تعلمون–هو الصاغ بحرى سعد عبدالعزيز أبوالوفا من خريجى الدفعة الأولى بالكلية البحرية عام ١٩٤٨ ، تلك الدفعة التى كان من ضمنها أيضاً الشهيد الصاغ بحرى جلال الدين الدسوقى والشهيد الصاغ بحرى محمد شاكرحسين.. رحمهما الله.

و يستطرد الجد فى حكيه :

– كانت الفرقاطة موجودة فى مياه شرم الشيخ من قبل قيام الحرب بأيام طويلة ، حيث كان من أهم واجباتنا فى تلك المنطقة هى السيطرة على مياه خليج العقبة ، و غلقه أمام السفن المتجهة إلى ميناء إيلات الإسرائيلى ؛ لوجود حالة الحرب بيننا و بينهم .. وقتها .

لم يكن التوتر العسكرى فى تلك الفترة ينبئ عن اندلاع الحرب بعد عدة أيام قليلة ، كنا نبحر فى مياه الخليج بكل حرية ، كنا فى الوقت نفسه على أعلى درجة من الاستعداد للقتال إذا نشب .

كانت تلك الفترة التى سبقت الحرب لها ذكرياتها العزيزة أيضاً ، كان لكل من على السفينة مشاكله الخاصة ، و معاناته المختلفة ، و مع ذلك كان كل واحد منا يهون على زميله ، و يحاول تقديم حلول لها ، كنا نشعر بأننا أسرة واحدة .

كانت معظم تلك المشاكل تدور حول تركنا لأسرنا وعائلاتنا وبعدنا عنهم ، رغم احتياجهم الشديد لنا ، بالنسبة لى ، كانت مشكلتى الخاصة هى تركى لزوجتى بالإسكندرية و بعدى عنها ، فى توقيت صعب ، فهى حامل فى شهورها الأخيرة ... كان القلق عليها ينتابنى بين الحين و الآخر ، خاصة أن الإتصالات التليفونية كانت شبه معدومة فى تلك المنطقة .

كل منا كان يحكى همومه للآخر ؛ ليخفف بها عن نفسه ... فكان ذلك من أسباب الألفة و الترابط بيننا ... ضباطاً و جنوداً ... ساعد على ذلك اهتمام قائد الفرقاطة بتلك الجوانب الإنسانية ، ولِمَ لا ؟ .. فهو مثلنا أيضاً ... فهو بعيد عن والديه اللذين يحتاجان لوجوده بجانبهما .. فوالدته مريضة بالقلب .. و والده مسن .

يواصل الجد حديثه :

- لازلت أذكر حديث القائد معى حينما كانت تبحر السفينة بمياه الخليج ، كانت الشمس ساعتها تستعد للرحيل ، متذكراً وقتها أنعام فقد كانت تحب رؤية هذا المنظر ، ثم أتخيلها و آلام الوضع تنتابها ، فيظهر الأسى على وجهى ... لم أشعر إلاّ بالصاغ سعد وهو يضع يده على كتفى ، و على وجهه شبه ابتسامة ، ويدور حوار بيننا .. قال :
- لِمَ كل هذا الحزن ؟ ... هل يضايقك شئ هنا ؟
- لأ يا أفندم .

هز رأسه ، و زادت ابتسامته ، ثم قال :

- أعلم أن زوجتك قاربت على الوضع ... اطمئن ستكون وقتها بأجازة لتكون بجانبها ... هذا وعد منى .

و يواصل الجد سرده:

– ضرب بيده على ظهرى ثم انصرف .. كانت كلماته هذه لها وقع السحر فى نفسى .. شعرت بالسعادة الحقيقية ... كنت أود أن أشد على يد كل من يقابلنى من الضباط أو الجنود مصافحاً ... نشطت فى عملى ... بل الأكثر من ذلك .. اهتممت بالجانب الإنسانى أيضاً لجنودنا من البحارة .. خاصة من المتزوجين منهم ، و الذين يعانون من مشكلات مثل مشكلتى .

واكتشفت أن ما فعله القائد معى ... كان يفعله مع كل ضباط وجنود السفينة ... حيث كان يهتم بكل مشكلاتهم التى على الفرقاطة ... أو بمشكلاتهم الخاصة ... و يوصينا بأن نفعل مثله . كان فى اجتماعاته بنا يركز فى حديثه على ضرورة أن يشعر المقاتل بأن قيادته تسانده فى حل مشكلاته الخاصة أيضاً فيكون ذلك دافعاً قوياً له للاستبسال إذا ما نشب القتال .

يتوقف الجد لحظات ثم يستطرد فى حكيه :

– رغم ما كان يحمله كل منا من مشكلات خاصة ، فإننا لم ننس الجانب الترفيهى عن أنفسنا و عن جنودنا ، كان البعض منهم ذا مواهب فنية ، و بعضهم كان يهوى صيد السمك ، فيشبع هوايته و يشبع أيضاً بطوننا . و الآخرون كانوا يستسهلون الأمر ، فيشترون السمك و الكابوريا و أحياناً الاستاكوزا من الأعراب الذين يصطادونها و يعرضونها علينا مقابل مبادلتهم بأشياء أخرى

و يسرع فريق ثالث بإعداد تلك الوليمة .. فيأكل كل من على السفينة فى جو يسوده الترابط الأسرى .

يكمل الجد حكيه قائلاً :

– و فجأة يتبدل الحال ، حيث نعلم من قائد قوات شرم الشيخ ، بقيام إسرائيل بإسقاط قوات مظلاتها من الجو على بعض المواقع بسيناء ، و هجومها أيضاً على قواتنا البرية الموجودة بغزة والعريش ، و كان ذلك فى يوم ٢٩ أكتوبر كما عرفتم من قبل .

فى تلك اللحظة ينسى الجميع ما يحملونه من هموم و مشكلات خاصة بهم ، يصبح كل همهم الاستعداد لأى معركة قادمة ، وتأمين ميناء شرم الشيخ .

و تُرفع درجة الاستعداد القصوى بالفرقاطة استعداداً للقتال ، يتحرك الضباط و الجنود بخطى سريعة .. العزم يبدو على وجوههم .. الجندى الواقف على المدفع يتحسسه بحنان ، ثم يربت بيده عليه ، كأنه يطلب منه اليقظة معه ، فالصداقة تجمع بينهما . بينما جندى آخر مهمته الاعتناء بقذائف المدفع ، يقوم بهمة بتلميع كعوبها النحاسية ، فتضوى القذيفة تحت أشعة الشمس ، و عندما تضوى تجد عينى الجندى تلمعان أيضاً ، مع ابتسامة رضاء عن جهده تبدو على محياه ، أما الجنـــود المعينون

على الأسلحة المضادة للطائرات ، فعيونهم تنظر بدقة ناحية الأفق فى كل الإتجاهات ، لعلهم يشاهدون إحدى الطائرات المعادية ، فيطلقون عليها قذائفهم ، كانت عيونهم كعيون الصقر الباحث عن فريسة .

بينما يقوم الضباط الأقدم بواجباتهم بالمرور على الأحدث منهم للتأكد من تنفيذهم لمهامهم بكل دقة ، و الحماسة تملأ قلوبهم جميعاً .

يتوقف الجد برهة ثم يواصل ذكرياته :

– بعدها علمنا بالإنذار البريطانى الفرنسى ، الذى وُجِّه للقيادة المصرية ، حيث طُلِبَ من القوات المصرية و الإسرائيلية المتحاربة بالإنسحاب من قناة السويس لمسافة عشرة أميال ، كما سبق أن ذكرنا ، و كيف أن ثورة الغضب عمت الشارع المصرى وقتها ، و رغبة الجميع فى التحدى والتصدى لهذا العدوان ، فلم يخف على أحد أن هناك اتفاقاً بين الدول الثلاث ، و هو ما أكدته الوثائق و المذكرات عن تلك الحرب بعد مرور تلك السنوات العديدة عليها .

توالت الأحداث سراعاً ، أصدرت القيادة العليا المصرية أمراً بسرعة سحب قواتها إلى غرب قناة السويس .

كنا وقتها على علم بصعوبة تنفيذ هذا الأمر فور صدوره ، بالنسبة للفرقاطة " رشيد " لوجود قوة من الأسطول البريطانى أمام شرم الشيخ ، تتكون من الطراد نيوفوندلاند و مدمرتين أخريين ، فى وضع يمكنها من محاصرة السفن بالميناء ، كانت معلوماتنا وقتها بأن قوة الأسطول البريطانى تفوق الفرقاطة " رشيد " عدداً وعدة ، و الأهم أن مدى نيران مدافع أسطولهم تزيد عن الستة أميال ، بينما مدفع الفرقاطة " رشيد " مداه ثلاثة أميال ... أى أن النتيجة النهائية لو نشب قتال بيننا و بينهم ستكون لصالح الأسطول البريطانى .

يستمر الجد فى حكيه ، وعلامات التأثر تبدو على وجهه ، وفقاً للأحداث التى يرويها :

- كانت كل دقائق الموقف يحيطنا بها القائد أولاً بأول ، أوامره تتوالى بسرعة ، أمر بأن تتخذ الفرقاطة من المرتفع الصخرى عند مدخل الميناء ساتراً لها من الضربات المباشرة ، شرح لنا أهمية هذا الوضع للفرقاطة ، فهو علاوة على حمايتها من ضربات الأسطول البريطانى إذا ما هاجمها ، فإننا سنكون فى وضع يتيح لنا فرصة المبادأة بإطلاق النيران ، لهذا كان أمره بأن تكون مقدمة السفينة و هى راسية متجهة إلى الناحية التى ستأتى منها السفن البريطانية ، لأن مدفع سفينتنا فى المقدمة ، و كأن الفرقاطة بوضعها هـذا كانت تعمل كميناً لسفـن الأعداء ، أصدر

القائد أمراً مشدداً بعدم إرسال أية إشارات لاسلكية ، حتى لا يلتقطها العدو ، و يعلم بتحركات السفينة ، أصبح استخدام اللاسلكى للاستماع فقط ، و أمر بإخطاره فوراً عن أية معلومات جديدة يتلقاها مساعد اللاسلكى ، و توالت الأوامر ، و كان على معاونى القائد من الضباط متابعة تنفيذها بكل دقة ، فكانوا فى حركة دائبة سريعة ، ثم أصدر أمره بالاستعداد لتحرك السفينة عند الغروب .

و يصمت الجد لحظات ، كان نظره فيها ساهماً ، كأنه يستعيد تلك الذكريات العزيزة عليه ، ثم عاود حديثه و قد تأثرت نبرات صوته ، قال :

– الأحداث و المواقف التى تلت قبيل تحرك السفينة ، كانت من أروع الصفحات التى تمجد بطولة و شجاعة المقاتل المصرى ، وعدم التخلى عن الواجب الملقى عليه رغم المخاطر ، فقد كنا جميعاً نعلم أن القتال مع الأسطول البريطانى نتيجته محسومة سلفاً لصالحه ، ومع علمنا بهذا ، كان موقفنا ضباطاً و جنوداً موحداً .

دعانا قائد الفرقاطة ليتحدث معنا ، بدأ الحديث مع الضابط الأحدث ، كان هو الملازم أول بحرى على فاضل ، أخبره القائد بأنه يعرف ظروفه الخاصة ، لذا فهو يخيره بين البقاء بالسفينة ، أو الانسحاب مع قوات شرم الشيخ البرية ، و التى صدرت لها التعليمات بالانسحاب .

ثم استدعى القائد الضابط الذى يليه فى الأقدمية ، و كان هو الملازم أول بحرى أحمد الزمر ، وتحدث معه مثل حديثه مع زميله الأحدث ، ثم اليوزباشى بحرى مهيب هلال ... واستمر يسأل جميع الضباط .

المدهش أن إجابة جميع الضباط بالفرقاطة كانت واحدة ، فجميعهم فضلوا البقاء بالسفينة ، رغم المخاطر الجمة التى كانت تحيط بها ؛ لوجود الأسطول البريطانى بمدخل شرم الشيخ ، و لم يشأ أن يختار و لو واحد منهم الذهاب براً مع القوات المنسحبة والأكثر أمناً ، للتوجه إلى غرب القناة تنفيذاً لأمر الانسحاب .

يكمل الجد حديثه :

- فى تلك اللحظة نسى الجميع مشاكلهم الخاصة ، و حاجة أسرهم الشديدة إليهم . أصبح هدفهم هو تأدية واجبهم فى الدفاع عن الوطن ، و الدفاع عن سفينتهم رمز الوطن ، هذا الكيان الحى ، الذى يمثل كرامة مصر و هى ترفع رايتها الخضراء ، ذات الهلال و النجوم البيضاء ... و مافعله الصاغ سعد مع الضباط ، فعله مع الجنود ، و كانت إجابتهم هى الأخرى مماثلة لإجابة الضباط و هى البقاء بالسفينة ... إنهم حقاً خير أجناد الأرض .

أحسسنا وقتها بعطف القائد الأبوى ، رغم عدم وجود فارق كبير فى السن بينه و بيننا ، و زاد موقفنا الموحد هذا من إصرارنا على التحدى .

و يستطرد الجد فى حكيه قائلاً :

– " على بركة الله ... استعدوا للتحرك " بهذه العبارة التى نطق بها القائد .. بدأت رحلة المخاطرة الشجاعة .. التى باركها الله فى كل تحركاتها ... عاد الصاغ سعد لإصدار أوامره الحازمة ... طلب توزيع أحزمة النجاة لكل القوات بالفرقاطة ... و أمر بأن يلبسوها ... ارتدينا الأحزمة .. لكن القائد فضل عدم لبسها ... ظننت أن هذا سهو منه ... نبهته إلى ذلك ... ابتسم ابتسامة خفيفة ثم قال لى : " عدم ارتدائى لها ... سيعطى للجنود انطباعاً بالاطمئنان " ..

وبدأت الشمس فى الغروب .. أصدر القائد أمره بتحرك السفينة .. وبدأت السفينة فى مغادرة الميناء ... و بعد دقائق ... أرسلت قوة محطة الإشارة إشارتها اللاسلكية ، تستأذن فى إمكانية الرحيل مع الفرقاطة " رشيد " تنفيذاً لأمر الانسحاب ...

تم عرض الإشارة فوراً على القائد .. بلا تردد أمر السفينة بالعودة إلى الميناء لاصطحابهم معنا .. عدنا واصطحبنا تلك القوة ... عرض علينا بعض المصريين من المدنيين بشرم الشيخ الذهاب معنا بالسفينة ؛ خشية غدر الإسرائيليين بهم ... لم يمانع القائد نظراً لظروفهم الإنسانية و حماية لهم ، ركبوا بالسفينة ... وزعت عليهم أحزمة النجاة أيضاً ... كان يتمتم البعض منهم بتلاوة بعض الآيات القرآنية .

سارت السفينة ببطء ، وقد أطفأت أنوارها ، فأصبح الظلام من حولها دامساً ، ولطمات أمواج البحر الرتيبة بجسم السفينة ، تحدث إيقاعاً ثابتاً كأنها "مارش" عسكرى يُعزف احتفالاً بشجاعة من عليها .

أوقفنا استخدام الرادار تنفيذاً لأوامر القائد ، وذلك إمعاناً فى عدم اكتشاف الأعداء لموقعها ، فأصبحت عيوننا رغم الظلام ، وآذاننا ، و كل حواسنا بديلاً عنه .

عندما وصلنا لمدخل الميناء استدارت السفينة شرقاً ، وسارت قريبة وفى حذاء المرتفعات الجبلية ، حتى تبدو و كأنها جزء منها فى رادارات الأعداء ، ومن المرجح أن الأسطول البريطانى لم يلق بالاً ويهتم بمراقبة الرادار ، إذ يقيناً لم يكن يخطر ببالهم أن الفرقاطة "رشيد" بتسليحها المتواضع ، سوف تخاطر و تغادر الميناء ، واستمرت السفينة فى سيرها البطئ .

و تصل إلينا إشارة لاسلكية من قيادة البحرية تطلب منا التصرف حسب الحالة على أن يوضع فى الاعتبار ما صادف "دمياط" فى الليلة السابقة . كان ذلك فى السادسة مساء يوم أول نوفمبر . بعدها ترد إلينا إشارة لاسلكية أخرى من قيادة البحرية أيضاً تطلب منا التوجه بالسفينة إلى مرسى شرم الوجهة فى المملكة العربية السعودية .

و يستطرد الجد فى حديثه ، و على شفتيه شبه ابتسامة ، متذكراً أحداث تلك الأيام المجيدة ، قال :

– أتى مساعد اللاسلكى مسرعاً .. ليبلغ القائد بأن القيادة تطلب من السفينة تنفيذ أمر الانسحاب والإفادة عن موقعها .. وتطلب منها الرد عاجلاً.. كيف يتصرف مساعد اللاسلكى أمام هذا الموقف ؟ .. فقائد الفرقاطة أصدر أمره السابق بعدم استخدام جهاز الإرسال .. حيث أن سفن الأعداء ستكتشف موقعنا بتلك الإشارات المرسلة .. و يحل القائد المشكلة بأن يطلب من مساعد اللاسلكى إرسال إشارة من كلمة واحدة هى " عُلِم" !.

وصلنا بالقرب من مدخل خليج العقبة ، دون أن ترصدنا السفن البريطانية المعادية ، وهناك وجدنا بعض سفن الصيد مضيئة أنوارها أثناء عملها بصيد السمك ، عندئذ أمرنا القائد بأن نضئ مصباحاً فى مقدم السفينة حتى تبدو وكأنها إحدى هذه السفن ؛ للتمويه على الأعداء ، وكانت سرعة " رشيد " وقتها تزيد قليلا عنهم ، و متجهة جنوباً بالقرب من الساحل السعودى .

و تمر الساعات العصيبة ، و تبتعد " رشيد " تدريجياً عن الأسطول البريطانى و سفن الصيد ، منفذة أمر الصمت اللاسلكى بالنسبة لإرسال الإشارات . عندما ابتعدت السفينة عن موقع الأسطول البريطانى و أخذت المسافة تزداد بينهما ، أمر القائد

بإطفاء المصباح الأمامى الذى وضع فى مقدمة الفرقاطة ، ثم انطلقت بأقصى سرعة رغم الظلام الدامس ، و بعد فترة أخذت الشمس تشرق ، و على مدى البصر ظهر مرسى شرم الوجهة السعودى ، فعلت الابتسامات على الوجوه ، حامدين مكبرين ، وقفز الجنود إلى المياه يشدون الحبال اللازمة لربط السفينة ، وأرست السفينة مرساها باسم الله ، الذى رعاها الله فى تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر ، لم يتخل أى واحد منا عن واجبه ، كنا نؤمن بأن تأدية الواجب نوع من العبادة ، فلم يتخل الله عنا .

و يضحك الجد و تظهر على وجهه أسارير السعادة ، فينشرح صدر مستمعيه ، قال والبسمة تداعب شفتيه :

- فى الوقت الذى غادرنا نحن مياه شرم الشيخ ، كانت الفرقاطة البريطانية " كرين " تجوب المياه بالقرب من جزيرة تيران ، لعلها كانت تبحث عنا ، وفى الصباح ، فى اليوم التالى مباشرة لمغادرتنا شرم الشيخ ، أغارت خمس طائرات إسرائيلية على الميناء باحثة عن الفرقاطة " رشيد " فى مرساها المعتاد به ؛ كى تغرق سفينتنا أو تعطلها عن العمل ، لكنها لم تجدها ، بحثت عنها فى المياه القريبة فوجدت الفرقاطة البريطانية " كرين " فى مدخل تيران ، فظنتها الطائرات بأنها الفرقاطة المصرية " رشيد " ، وحدثت معركة بينهما ، الطائرات الإسرائيلية من جانبها تقذف الفرقاطة بوابل من نيران مدافعها الرشاشة ، و الفرقاطة تقـابـل الطائرات

بالمثل .. وتنتهى المعركة بينهما بسقوط إحدى الطائرات الإسرائيلية فى المياه ، بينما أصيبت الفرقاطة البريطانية بإصابات خطيرة .. و هكذا كنا فى رعاية الله .. فلم تكتشف تحرك سفينتنا أية قطعة من قطع الأسطول البريطانى بكل تجهيزاته .

قال صلاح الذى ظل مستمعاً لفترة طويلة معلقاً على حديث الجد :
– " و جعلنا من بين أيديهم سداً و من خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون " [1] صدق الله العظيم .. كان الله معكم لأنه لا يحب القوم المعتدين .

يكمل الجد حديثه :
– أسرعت إسرائيل و أذاعت نبأ غرق الفرقاطة " رشيد " بمياه شرم الشيخ وهو ما روته أنعام لكم ، علمنا بما أذاعته إسرائيل ونحن بميناء شرم الوجهة السعودى ، عادت إلى ذاكرتنا وفكرنا ، مشاكلنا الخاصة ، و تأثرنا بما لاح فى خيالاتنا من آلام ستنتاب الأهل والأحباب ، و لكننا كنا نعلم فى الوقت ذاته عن المعارك الضارية فى بورسعيد ونزول القوات البريطانية والفرنسية أرضها وبحث تلك القـوات المعتدية عن السفـن الحربية المصرية للعمل

(١) سورة يس الآية رقم " ٩ " .

على إغراقها ، و استمر الأمر الصادر من قائد الفرقاطة بعدم استخدام جهاز الإرسال اللاسلكى لمدة مناسبة ، ثم قام القائد بالإتصال بقيادة القوات البحرية و أعلنهم بموقع الفرقاطة .

تقاطع الجدة حديث زوجها ؛ لتكمل معلومة عن تلك الأحداث عاشتها بنفسها ، هى وبعض زوجات و أمهات الضباط البعيدين عن أسرهم فى الحرب ، قالت :

– كان الصاغ أحمد عبد المنصف محمود يطمئننا فى ذلك الوقت ، كان قائداً للتوجيه المعنوى للقوات البحرية وقتها ، برر لعائلات الضباط عدم إرسال إشارات من الفرقاطة باحتمال عطب أصاب أجهزة اللاسلكى ، كان يبادر بالسؤال عنا ويلبى احتياجات الأسر .

و تصمت الجدة ، و يعود الجد للحديث :

– أحمد من الدفعة الأولى أيضاً ، بعد أن علم بمكاننا أرسل يطمئننا عن أهلنا .. بارك الله فيه . بعد وصولنا لميناء الوجهة السعودى قام الصاغ سعد بزيارة الأمير حاكم المنطقة ، حيث عرض عليه الحاكم تقديم كل العون لرجال الفرقاطة ، و تم إخطار الملحق العسكرى المصرى بسفارتنا بالسعودية ، الذى حضر وأعددنا له حفلاً لاستقباله ، فوجئ الملحق بالانتظام التام ، والنظافة التامة بالسفينة و بالبحارة ، و كأننا فى وقت السلم .

سألنا الملحق العسكرى عما نطلبه و نحتاج إليه ، قرر له قائد الفرقاطة بأنه ليس لنا مطالب ، و لا نود أن نشغل قادتنا بأمور نراها صغيرة و يمكن التغلب عليها ، قال للملحق ذلك ، و نحن نعلم أن الإمداد و التموين بالسفينة نفذ بعضه والآخر يكاد .

بعد زيارة الملحق لنا أرسل تقريراً للقيادة فى مصر عن زيارته و أحاطنا بمضمونه حيث سعدنا بما جاء فيه .

لم يمر يومان إلاّ و علمنا بأن قيادتنا بمصر قد أرسلت لنا طائرتين عسكريتين محملتين بمختلف المؤن .. كان لموقف حكومتنا معنا و الاهتمام بنا بهذه السرعة أثره الكبير فى نفوسنا و رفع معنوياتنا .

يصمت الجد لحظات ثم يواصل حديثه عن تلك الذكريات :
– وإن نسينا فلن ننسى المواقف الكريمة للراحل الملك سعود وقتها فقد كان يتابع موقف السفينة ، و يرسل للقائد إشارات ينصحه ويحيطه بموقع السفن البريطانية القريبة منا لنتخذ الإجراءات الأمنية من الحيطة و الحذر عارضاً تقديم أى عون ...

و بعيداً عن زوجتى ... أتلقى البشرى بأنها وضعت بنتاً جميلة يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٦ ، و أنهم لـــن يسموها إلاّ بعد عـــودتى ،

أبرقت لهم مهنئاً ومسمياً ابنتى بـ"انتصار" ، و كان فى يوم عيد ميلادها سنوياً يحضر عبد الناصر إلى بورسعيد ليحتفل مع الشعب بذكرى النصر ، بينما نحن نطفئ شموع عيد الميلاد .. وظل شعب بورسعيد يحتفل سنوياً بذكرى هذا الانتصار ، بل أصبح يوم ٢٣ ديسمبر عيداً لمحافظة بورسعيد .. كانت المقاومة على أشدها .. فلم يهنأ بال القوات المعتدية خلال أيام الغزو .. فالمعركة استمرت بينهم وبين الشعب برجاله وشيوخه ونسائه وأطفاله .. وأتذكر أن رجال المقاومة خطفوا أحد الضباط الإنجليز ، وهو من الأسرة المالكة البريطانية ... ثم أخفوا جثته ... بحثت القوات الإنجليزية عنه .. و لم تعثر عليه حياً أو ميتاً رغم استخدامها لكل أساليب التعذيب للمواطنين ... أتذكر اسمه جيداً من كثرة ما تناولت موضوعه الصحف ووكالات الأنباء .. كان يدعى " مورهاوس" ..

ويخرج المعتدون من أرض مصر .. لصلابة المقاومة .. ولموقف شعوب وحكومات دول الحياد الإيجابى .. التى عمت بلادها المظاهرات منددة بالغزو .. ولمواقف التأييد من الدول العربية والإسلامية .. وأخيراً وفقاً لقرارات الأمم المتحدة الحاسمة ، رغم انتصار الأعداء عسكرياً ، فإن الانتصار السياسى كان قوياً لمصر ولقادتها ، فقد ازدادت شعبية عبد الناصر ، ليس فى مصر فحسب بل فى جميع البلدان العربية والإسلامية ، و فى دول العالم الإسلامى ، و كان ذلك دعماً لتيار التحرر و للقومية العربية .

و يصمت الجد لحظات ، ثم يواصل حديث الذكريات :

- كنا خلال فترة وجودنا بالساحل السعودى بدرجة الاستعداد القصوى للقتال .. الحراسات.. والمراقبة.. مناوبة طوال اليوم .. لعل ذلك أفشل خطة إسرائيل فى اختطافنا .. فقد علمنا من أحد الكتب التى صدرت عن الأعمال الفدائية الإسرائيلية التى طبعت بالخارج بأنهم كانوا يخططون لاختطاف بحارة " رشيد " ، لكنهم لم ينفذوا خطتهم .

و هكذا كنا فى رعاية الله .. فلم تكتشف تحرك سفينتنا أية قطعة من قطع الأسطول البريطانى بكل تجهيزاته .

و فى بداية يناير ١٩٥٧ صدرت لنا الأوامر من قيادة البحرية بعودة رشيد إلى أرض الوطن ، بعد أن عاد السلام إلى ربوع الوطن ... كانت الإذاعة وقتها تردد أغنية " عاد السلام يا نيل " .. فسمعناها و نحن نعبر بالسفينة قناة السويس فى رحلة العودة للإسكندرية .. ذكرياتى هذه محفورة ، لن تستطيع الأيام مهما طالت أن تمحوها .

تدور بين المستمعين تعليقات و تعقيبات عديدة ، كلها كانت تشيد برجال السفينة " رشيد " ، الذين لم يتخاذل أى فرد منهم ، وقاموا بتأدية واجبهم خير قيام ، فكان الله فى رعايتهم .

بعد أن انتهوا من تعليقاتهم ، ذكرهم الجد بصلاة العشاء ، فقاموا يؤدونها .

١٠

خفتت تدريجياً أصوات المتحدثين بالحجرة ، بعد استمتاعهم بحكايات الجد المثيرة ، و استعدوا للرحيل . إنهم كعادتهم فى كل مرة بعد الوليمة ، يتناقشون فى أمور شتى ، وأحياناً أخرى يتمازحون وهم يشربون الشاى والقهوة . هذه المرة ، كان الموضوع الذى استمعوا إليه جاداً ، لكنه كان شائقاً فى الوقت نفسه لا سيما بالنسبة للأجيال التى لم تعش أحداثه ، وتميزت جلستهم تلك بأنها استغرقت زمناً أطول عن المرات السابقة ، حتى أن الحاجة أنعام ، المتعبة من إعداد الوليمة ، لم تستطع مقاومة رغبتها فى التثاؤب ... فتثاءبت .

لكن سؤالاً وجهه صلاح لزوج ابنته ، أعاد للحاضرين انتباههم وتركيزهم ، وأثار فضولهم لمعرفة إجابة أحمد عليه.. سأله صلاح :

– يا أحمد ، لِمَ طلبت مقابلتى الليلة ؟ أهو لأمر عاجل ؟

– ليس عاجلاً .. ولكنى كنت فى حيرة من أمرى .. كنت أود أن أستشيرك فى مشكلة .. لكنى وجدت حلها هنا بعدما استمعت لحكايات جدى الليلة .

– وجدت حلها ؟ .. ما هى المشكلة أولاً ؟

يعم الصمت الحجرة ، كل الأنظار تتجه لأحمد ، فى انتظار عرض المشكلة... ويتحدث أحمد بصوت هادئ رزين .. يخبرهم عن

معلومات فساد تأكد منها عن المليونير صاحب شركته ، حيث أنشأ العديد من الشركات الأخرى ، بحصوله على قروض من عدة بنوك ، دون تغطيتها بضمانات حقيقية ، و عن طريق التحايل ، بصلاته المشبوهة ببعض مديرى تلك البنوك ، ويساعده فى تسهيل حصوله على تلك القروض بعض كبار المسئولين ...

ويصمت أحمد فترة ، ثم يوجه حديثه لوالد زوجته قائلاً :

- كنت متردداً وفى حيرة من أمرى .. هل أبلغ الأجهزة الرقابية عن المليونير صاحب الشركة ؟ أم ألوذ بالصمت .. خاصة أننى أعلم بأن الكثير من المسئولين يخطبون وده .. لكن بعدما سمعت من جدى تلك الحكايات التى قام فيها كل مواطن بتأدية واجبه .. حتى أن بعضهم ضحى بروحه .. توكلت على الله وعزمت بأن أؤدى واجبى أنا الآخر وأبلغ الرقابة الإدارية بكل مالدى من معلومات .

تعقب سلوى على حديث زوجها ، قائلة بأنها تخشى أن ينتقم منه صاحب الشركة ، وأن أقل انتقام يمكن أن يفعله معه هو فصله من الشركة ، وتضيف بأنها وزوجها ملتزمان سوياً فى تسديد أقساط شهرية ... و تتساءل موجهة حديثها للحاضرين :

- لو تم فصل أحمد ، كيف لنا أن نسدد ماعلينا ؟ ومالذى يضمن لنا أن يلتحق بعد فصله للعمل بشركة أخرى ؟

يرد عليها أحمد مصراً على قراره بقوله :

- ليكن ما يكون ! .

كلمات أحمد التى قالها ، وحوار زوجته معه ، شدت انتباه بقية أفراد الأسرة .. فاستمعوا بانتباه لأحمد وهو يشرح لهم تفصيلات دقيقة تؤكد صحة المعلومات عن هذا المليونير . وكان الجد هو أول المؤيدين له لإبلاغه الرقابة الإدارية ، ووجه حديثه لزوج ابنته صلاح متسائلاً :

- لِمَ يا صلاح كل هذا الفساد ؟ .. ألم أقل لك أن الفساد استشرى فى البلد .. حتى أصبحت كل الجرائد تخصص مساحات كبيرة لنشر أخبار الحوادث عن الانحرافات .. وهى انحرافات فى كافة المجالات .. لم نكن هكذا من قبل ! .

يجيبه صلاح بقوله :

- يا عمى الجريمة موجودة منذ قابيل وهابيل .. والصراع بين الخير والشر سيظل قائماً بينهما إلى أن تقوم الساعة ...
- ألم تلاحظ يا صلاح كثرة تلك الحوادث المنشورة فى الجرائد ؟
- لاحظت .. ولكن كثرتها ترجع لعدة أسباب منها أن المعلومات عن وقوع الحوادث أصبح الحصول عليها أسهل من ذى قبل لسهولة الإتصالات الآن .. ولعدم التستر وإخفاء الحوادث ذات الحساسية لوجود مساحة كبيرة الآن فى حرية النشر.. ومن ناحية أخرى زاد عدد الصحفيين وزادت أعداد الصحف ، مما أشعل المنافسة بينهم فضلاً عن أن صفحة الحوادث أصبح لها جمهور كبير... مما حفز

الصحف على نشر الحوادث ؛ لزيادة نسبة المبيع منها .

- لكن يا صلاح الجرائم زاد عددها .. خذ مثلاً جريمة اغتصاب النساء .. ما من مرة إلاّ و نقرأ عن حادث لذئب بشرى أو ذئاب بشرية اغتصبوا أنثى .. و ربما طفلة ...

- جريمة الاغتصاب زاد عددها حقاً .. لكن نسبتها بالنسبة لعدد سكان مصر الآن ونسبتها فى الماضى واحدة .. الآن سكان مصر يزيدون عن الستين مليوناً .. بينما عند قيام الثورة كان عددهم يتراوح ما بين العشرين مليوناً .. وسبب آخر يُظهر الزيادة هو أن المجنى عليهن أصبحن لا يخجلن إذا ما تعرضن لتلك الحوادث ويبلغن الشرطة على الفور ، بعكس ما كان يحدث فى الماضى .

- و ما رأيك فى الكم الكبير الذى يحدث الآن من حوادث القتل بين الأزواج ؟ وبين أفراد الأسرة الواحدة .. هل تنكر هذا أيضاً ؟

- لا أنكره يا عمى .. و لكنى أبرره مثلما بررت الزيادة الظاهرية فى حوادث الاغتصاب ..

- و ما رأيك فى نشر حوادث القبض العديدة على شبكات ممارسة الدعارة ؟ .. أليس هذا دليلاً على انتشار الفساد ، ويسئ لسمعة مصر ؟

- لست متشائماً .. فى المقابل زادت أعداد المساجد و الكنائس عن ذى قبل .. وزادت أعداد المصلين والمترددين عليهم .. وزادت أعداد المحجبات والمحتشمات .. أما مكافحة الرذيلة بضبط شبكات الدعارة ... فهذا يحسب للحكومة و ليس عليها ... إنها لا تخفى

رؤوسها فى الرمال كالنعام .. بل تواجه الرذيلة بالقانون .

– مادمت يا صلاح غير مقتنع بأن الفساد استشرى فى البلد .. فسوف أسوق إليك براهين و أدلة أخرى ... ما رأيك فيما تطالعنا به الصحف بين الحين و الآخر عن انحرافات فى بعض الأجهزة التنفيذية بالمحافظات من مسئولى الأحياء ومعاونيهم ، حيث توجه لهم تهم تقاضى رشاوى أو تربح أو استغلال نفوذ .. بل وصل الأمر بأن وجهت مثل تلك الاتهامات لبعض المحافظين أنفسهم ؟

ويجيب صلاح بهدوء :

– هذا دليل على يقظة الأجهزة الرقابية و فعاليتها .. وهو أمر يشكرون عليه .

– و ما رأيك فى اهتزاز صورة الطبيب ، ملاك الرحمة السابق ؟ ... و ما هو تبريرك للحوادث التى تنشر عن جشع أو إهمال بعض الأطباء لا سيما بالمستشفيات الخاصة التى أصبحت تتفنن فى ابتزاز المرضى .. ألم تقرأ شكاوى واستغاثات المرضى فى الجرائد ؟

– حال الأطباء مثل حال المدرسين .. و نفس ما قلناه عن المدرسين والدروس الخصوصية ينطبق عليهم ... فالغلاء الفاحش فى كل شئ هو السبب الذى غير من سلوك المدرس و الطبيب و غيرهما فأصبحت العيادة الخاصة و تجهيزاتها عزيزة المنال للطبيب المبتدئ .

– وألم تقرأ عن الفساد الذى وصل إلى مأموريات الضــرائب، حيث

يقلل بعض مأمورى الضرائب الربط الضريبى لبعض كبار الممولين مقابل تقاضيهم رشاوى .. و هذا ليس إدعاءً .. فإنهم يضبطون متلبسين و تنشر أخبارهم الصحف .

– ضبط مـــأمور الضرائب فى هذا الوضع ، يعنى أن الممول أصبح واعياً بحقوقه وبواجباته ، فأبلغ عن الواقعة ... ليت كل الناس تفعل مثلما فعل هذا الممول ... و أن الأجهزة الرقابية قامت بواجباتها و لم تتقاعس .

يستمر الحوار الدائر بين الجد وزوج ابنته ، و يصر كل منهما على رأيه ، لكن تدريجياً يكتسب الجد إلى صفوفه بعض أفراد الأسرة ، يؤيدون رؤيته فى أن الفساد يستشرى فى كثير من نواحى الحياة ، و لايقتنعون بتلك التبريرات التىيتعلل بها صلاح ، ويبحثون عن حلول جذرية لاقتلاع الفساد من حياتهم ... لكنهم لايصلون بعد لهذا الحل .

لا تسكت انتصار و لا تقف موقف المستمع ، بل تتدخل فى الحوار الدائر ، و توجه حديثها لزوجها قائلة :

– يا صلاح والدى معه حق .. هناك بعض الظواهر التى تدل على انتشار الفساد ، و لم تكن موجودة من قبل ... فمثلاً ظاهرة الغش فى الامتحانات ، و جرائم تسرب الأسئلة ... حقيقة أن هذا ليس أمراً جديداً ... لكن الجديد و المؤلم أن نسمع بأن بعض الضالعين

فى قضايا تسرب الأسئلة من المدرسين التربويين ... فكيف يصل بنا الحال إلى هذا الوضع ؟

يجيب صلاح بسرعة :

- الحكومة فور علمها بحوادث الغش و تسرب الأسئلة أحالت المسئولين للنيابة للتحقيق فوراً .. فماذا يمكن لها أن تفعل أكثر من هذا ؟

و تتبع انتصار سؤالها بسؤال آخر ، توجهه لزوجها أيضاً :

- و ما رأيك فيما وصل إليه حال متعهدى الأغذية بمدارس المرحلة الابتدائية فى تقديم أغذية انتهى موعد صلاحيتها ، أو تقديمهم لأغذية فاسدة تسببت فى إصابات العديد من التلاميذ بحالات تسمم ... أليس هذا فساداً من متعهدى الأغذية بمشاركة المسئولين عن استلامها وتوزيعها على التلاميذ ؟ . و لم يحدث هذا فى مدرسة واحدة .. بل فى العديد من المدارس و فى محافظات مختلفة .

- لقد أحالهم الوزير فوراً للنيابة للتحقيق معهم ، وسيطبق عليهم القانون .

و تنضم سلوى إلى رأى أمها ، وتوجه حديثها إلى والدها :

- أمى عندها حق ... الناس ترتكب المخالفات ، و أصبحت لا تخشى القانون .. فهم يتحايلون بطرق غير مشروعة أو بالواسطة فى عدم تطبيقه عليهم .

- مثل ماذا يا سلوى ؟

- الأمثلة كثيرة .. مثلاً المشكلة التى أعانى منها أحياناً وأنا متجهة لعملى أو عائدة منه .. فكثيراً ما أستقل سيارة أجرة بدلاً من الترام ، جميع السائقين أجدهم لايلتزمون بتشغيل العدادات ، وأحياناً أستوقف سيارة أجرة خالية من الركاب .. فيسألنى السائق أولاً عن الجهة التى سأتجه إليها .. فإذا لم تكن فى طريقه .. اعتذر.. يفعلون ذلك معى و مع غيرى ؛ لأنهم لا يخشون تطبيق القانون فى الامتناع عن توصيل راكب أو عدم تشغيل العداد .. وأصبح هذا الأمر معتاداً للناس ، و يتقبلونه للأسف .
- و أنتِ ماذا تفعلين عندئذ ؟
- و ماذا بوسعى أن افعل ؟ .. لا شئ طبعاً .
- لو أنكِ وغيركِ أبلغتم الشرطة عن أرقام تلك السيارات لانعدمت المشكلة .. فالشرطة وحدها لن تستطيع متابعة جميع سيارات الأجرة فى سيرها .
- لكن هذه الظاهرة لم تكن موجودة من قبل بهذه الكثرة .

هأهأ الجد ، و وجه حديثه باسماً لسلوى ، قائلاً :

- و كم يبلغ عمرك ياسلوى لتقولى إن الظاهرة لم تكن موجودة من قبل .. وماذا كنتِ تقولين لو أنكِ فى مثل عمرى ، ورأيتِ كيف كان سائق الأجرة يتعامل مع الراكب .. كنتِ ستتحسرين بالقطع .

يكمل الجد حديثه ، و لكن يوجهه إلى صلاح :

– والآن ما رأيك يا صلاح فيما قالته سلوى ؟ .. أليس هذا نوعاً من الفساد الذى عم معظم الحياة بيننا ؟

و لعل الحديث الدائر عن المشكلات و الفساد بالبلد حفز الجدة للمشاركة فى الحديث ، فأرادت أن تدلى هى الأخرى برأيها عن مشكلة تؤرقها ... قالت موجهة حديثها لصلاح :

– فعلاً الفساد انتشر حتى وصل إلى الموسيقى و الطرب .. ما رأيك يا صلاح فى الأغانى الهابطة التى انتشرت فى البلد الآن ؟

و يدور حوار بين الجدة و صلاح بدأه مجاوباً على سؤالها بقوله :

– كان فى الماضى أيضاً أغانٍ هابطة .

– لم تكن بهذه الكثرة و بهذا الانتشار .. لقد هبطت الأغنية من حيث كلماتها .. و ألحانها .. و أصبحت الألحان مقتبسة من الأغانى الغربية .. فبعدت عن اللحن الشرقى الأصيل .. وأصبحت الأغانى المصورة تعتمد فى إخراجها تليفزيونياً على الأجساد شبه العارية ... أين النغم العربى الأصيل من ألحان هذه الأيام ؟

يرد صلاح و على شفتيه شبه ابتسامة :

– و ما ذنب الحكومة ؟ .. أوجدت فرقاً للموسيقى العربية .. وأنشأت معاهد للموسيقى .. أما المؤلفون والملحنون والمطربون

فهم نتاج هذا الشعب ... وهم الذين يؤلفون ويلحنون ويطربون ولا دخل للحكومة.

– ذنبها أن وسائل الإعلام لا زالت فى يدها .. و تستطيع أن توجه وأن تمنع .. فيرتفع ذوق المستمع .. أليس هذا الشعب ، بكل فئاته وطبقاته ، كان يُطرب لقصائد أم كلثوم وروائع عبدالوهاب .. و لازال حتى الآن ؟

– لقد تغيرت الأذواق .. و الشباب لهم أذواقهم الخاصة .. ولايجب على الحكومة أن تحجر على أذواقهم .

– التطوير يا صلاح سنة الحياة .. و عندما نطور يجب أن يكون إلى الأحسن ، و إلى الأفضل .

و لا يجد صلاح مخرجاً من مواصلة الحوار مع حماته ، إلاّ بالتحدث مع ابنه خالد ، فيبتسم وهو يوجه سؤالاً له ، لعله يتفق فى الرأى معه ، قال :

– و أنت يا خالد .. ما رأيك ؟ أليست الأغانى الشبابية هى التى تفضلونها ؟

يجيبه خالد على الفور :

– نفضل ترديدها فى الاحتفالات والرحلات الجماعية فقط ؛ لأن معظم تلك الأغانى تعتمد على التصفيق مع المطربين كنوع من المرح ، أما إذا كنا نود السماع للطرب ، فنرجع إلى الأغانى القديمة الخفيفة ، ويوجد أغانٍ لبعض المطربين و المطربات العرب الآن ،

ممن يتغنون بأشعار نزار قبانى تعجب الشباب ...

تنظر الجدة إلى خالد ، و على شفتيها ابتسامة خفيفة ، ثم تربت بحنان بيدها على ظهره ، بينما يضحك صلاح ، موجهاً حديثه لهم جميعاً :
– أشعر بأنكم تتحدثون و كأنكم تقرءون من صحف المعارضة ...

يبادله الجد المزاح موجهاً حديثه له قائلاً :
– و أنا أشعر يا صلاح بأنك من مسئولى حزب الحكومة .. تبرر وتفند أى اتهام بالتقصير يوجه للحكومة .. و لكنى أتساءل حقيقة ما هو الحل لمواجهة هذا الفساد ؟ .. إنى أرى أن الأمر خطير ... حينما هاجمتنا قوى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وقف الشعب كله وقفة رجل واحد ؛ لأنه استشعر الخطر ، وعندما هُزمنا عام ١٩٦٧ ، وأراد عبد الناصر أن يتنحى .. هب الشعب رافضاً تنحيه طالبا منه الاستمرار و المقاومة ؛ لأنه شعر بالخطر أيضاً .. فسقوط عبد الناصر رمز النضال ، كان معناه فى ذلك الوقت ، قبولنا بالهزيمة .. ثم عاش الشعب سنوات الهزيمة ، وكله إصرار على مواصلة القتال ، فكانت حرب الاستنزاف .. و حتى بعد موت عبد الناصر .. استمر الشعب فى إصراره على مواصلة القتال .. حتى أصدر السادات قرار الحرب عام ١٩٧٣... وكان انتصارنا الكبير ... المشكلة التى تواجه الشعب الآن .. هو أن الفساد انتشر

كالسوس فى معظم المرافق والمواقع .. ويتعامل معه الناس كل يوم .. لقد تعودوا عليه.. ولكنهم لا يشعرون بخطره .. أفكر كثيراً فى هذا الأمر ، و أبحث عن حل فلا أجده .

يصمت الجد قليلاً ، ثم يوجه سؤالاً لهم جميعاً ، قائلاً :

– هل لديكم حل ؟

و تنبرى انتصار بقولها بأن الحل أن نفعل مثلما تفعل الدول الديمقراطية إذا ما داهمها الخطر أو المشكلات الجسام ، فإن هذه الدول تسرع بتشكيل حكومة إئتلافية لتواجه ذلك الخطر .

و يتحفظ والدها على هذا الرأى طالباً مشاركة إيجابية من أفراد الشعب أنفسهم لمواجهة الفساد ، مثلما سيفعل أحمد بالإبلاغ عن الإنحراف الذى علم به .

و يؤيد أحمد الجد فى تحفظه ، و لكنه يضيف بأن تكون البداية بتوعية الشعب ، فوجود الفساد ليس هو الذى سيحرك الشعب ، ولكن يجب أن يشعر الشعب أولاً بخطورته المستقبلية ، وهذا هو دور أجهزة الإعلام فى تنوير أفراد المجتمع .

و يعلق صلاح على هذا القول بأن المشاركة الإيجابية لأفراد الشعب يلزم لها أن تبدأ أولاً بالقيد بجداول الانتخاب ، ومباشرة حق

الانتخاب ، ثم يكتشفون جميعاً بأنهم غير مقيدين بجداول الانتخاب و يوضح صلاح لهم بأنه هو شخصياً ممنوع من الإدلاء بصوته بحكم القانون . ويضيف صلاح لهم بأن هناك نسبة كبيرة من المثقفين تعزف عن الذهاب للإدلاء بأصواتهم لانتقاء أفضل المرشحين .. و هو أمر هام ؛ لأن هؤلاء المنتخبين هم الذين سيمثلوننا فى المجلس النيابى ، و يسنون القوانين ، ويحاسبون الوزراء ...

يقاطعه الجد قائلاً :

– إنهم لا يذهبون للإدلاء بأصواتهم ؛ لأنهم ...

ويقاطعه صلاح بدوره ، و يقول :

– مهما كان الأمر يا عمى .. لا بد وأن نبدأ بالخطوة الأولى ، وهى القيد بجداول الانتخاب ، ونحن فى شهر نوفمبر ، و هو أحد الشهور التى يتم فيها مراجعة الجداول و القيد فيها ... ويتفق أفراد الأسرة على البدء فعلاً فى قيد أسمائهم ، اعتباراً من الغد .

هكذا يجتمع شمل الأسرة ، فى البيت الكبير ، مرة فى الشهر ، وأحياناً مرتين ، حيث تشملهم رعاية الجد بتجاربه فى الحياة ، والجدة بحنانها ، فيشعرون يومها جميعاً بالسعادة و الهناء ، وتكون أكثرهم سعادة هى الجدة ، رغم ما تكابده من مشقة فى إعداد الوليمة ، و فى كل مرة يجلسـون بعد تناولهم الطـعام ، يدردشون

ويتحاورون ، ويختلفون ، لكن بالمودة و بالاحترام يتبادلون الحديث بينهم .

و يكاد لقاء هذه المرة أن ينتهى ، فتخبر انتصار والديها ، وهى تهم بالوقوف ، بأنهم سيحضرون سوياً الشهر القادم ليلة الاحتفال بالألفية الثالثة ، فتعترض الجدة قائلة :

– لأ ياانتصار .. ستكونون جميعاً هنا يوم الخميس ٩ ديسمبر قبل الاحتفال بالألفية .. سيكون موافقاً لأول شهر رمضان .. كل عام وأنتم بخير ؛ لنتناول الإفطار سوياً ... وهذه عادة ويجب الالتزام بها .

و يتبادل الجميع التهانى بقرب حلول شهر رمضان المبارك ، وبالقرب من الباب ، أثناء خروج صلاح مع بقية أفراد الأسرة ، يشكر الجدة قائلاً لها ، و هو يداعبها :

– يا حاجة أنعام ، هذه المرة كانت الوليمة دسمة للغاية .

و تعترض الحاجة أنعام قائلة :

– دسمة ؟ ... كل الطعام كان مطهياً بزيت الذرة ! .

و يضحك صلاح قائلاً :

– لا أقصد وليمة الطعام ... و لكن وليمة الدردشة ! .

تمت

المراجع التاريخية

ـــ الكتب العربية :

١ ـ أحمد عبد المنصف محمود ، دكتور ـ تاريخ البحرية المصرية ، البحرية المصرية فى مائة عام ، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤

٢ ـ عبده مباشر ، صحفى ـ البحرية المصرية من محمد على للسادات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥

٣ ـ محمد محمود السروجى ، دكتور ـ تاريخ البحرية المصرية ، البحرية المصرية فى العصر الحديث ، جامعة الإسكندرية ١٩٧٤

– الكتب الأجنبية :

Suez - The seven day war , by A.J.Baker.

– المجلات و المقالات :

أشرف محمد رفعت ، لواء بحرى ا.ح.م ـ بطولات البحرية المصرية فى العدوان الثلاثى ، مجلة الدفاع ، العدد ١٤٩ ديسمبر ١٩٩٨

صدر للمؤلف

١ - رحلة مع الأقدار - الرواية الأولى من سلسلة حكايات ضابط فى الأرياف
الطبعة الأولى - ١٩٩٥
الناشر - المؤلف نفسه
الطبعة الثانية - ١٩٩٩
الناشر - الشركة العربية للنشر والتوزيع - دار هبة النيل ، بالقاهرة .

٢ - رحلة مع الثأر - الرواية الثانية من سلسلة حكايات ضابط فى الأرياف
الطبعة الأولى - ١٩٩٨
الناشر - مؤسسة حورس الدولية ، بالإسكندرية .

٣ - كلانا يسرق اللحم - مجموعة قصصية قصيرة - فازت فى مسابقة "نادى القصة " ١٩٩٤
الطبعة الأولى - ١٩٩٦
الناشر - المؤلف نفسه .

يصدر قريباً

١ - مذكرات أحلى الأيام — رواية اجتماعية من ثلاثة فصول .
٢ - ابن حضرة الناظر — مجموعة قصصية قصيرة

المراسلات

٤شارع رياض - زيزينيا - الإسكندرية
الهاتف : ٥٧٢١٥٠٦ / ٠٣ الإسكندرية